

سقراط

تأليف

الفرد إدوارد تيلر

ترجمه

محمد بكير خليل

راجعه

الدكتور زكي نجيب محمود

الألف كتاب (٤١٥)

سقراط

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة - مصر

هذه ترجمة كتاب

SOCRATES

تأليف

A. E. Taylor

فهرس

مقدمة

بقلم الدكتور زكى نجيب محمود

مؤلف هذا الكتاب هو ألفرد إدوارد تيلر (١٨٦٩ — ١٩٤٥) وقد كان أستاذا للفلسفة فى الجامعات البريطانية ؛ بدأ حياته العلمية فى جامعة أكسفورد ، ذاهبا عندئذ مذهب المثاليين فى الفلسفة ، على نمط المثالية التى أخذ بها ف . هـ . برادلى — وكان برادلى حينئذ « زميلا » فى نفس الكلية التى بدأ بها تيلر حياته العلمية فى أكسفورد وهى مثالية تقوم أساسا على مبادىء هيجل ، لكنها تغيّر فيها بعض الشىء لتصبح وكأنها مذهب جديد يتناسب مع معتنقيه من فلاسفة الإنجليز فى أواخر القرن التاسع عشر ؛ وهو نفسه المذهب الذى اعتنقه بادىء ذى بدء « مور » و « رسل » ثم خرجا عليه بفلسفتهما التحليلية الجديدة ، وأهم ما أخرجه تيلر فى تلك المرحلة الأولى من حياته العلمية كتابا « مشكلة السلوك » و « مقومات الميتافيزيقا » ، وهما كتابان ينزعان النزعة المثالية التى أسلفنا ذكرها .

وغادر تيلر جامعة أكسفورد وهو ما يزال فى صدر رجولته وفى أوائل سيرته ، غادرها ليقضى بقية حياته العلمية أستاذا للفلسفة الخلقية فى جامعة سنت أندروز أولا ، ثم فى جامعة أدنبره ثانيا (وكلتاهما فى

اسكتلنده) ؛ وهو لم يكد يغادر أكسفورد حتى غادر معها تبعيته الفلسفية لبرادلى ، واصطنع لنفسه اتجاها يقيم أسسه على ركائز من فلسفة أفلاطون ومن العقيدة المسيحية معا ؛ وإنه ليقرر فى كتابه « عقيدة فيلسوف أخلاق » (وهو كتاب يضم سلسلة محاضراته التى ألقاها فى مجموعة « محاضرات جيفورد ») إنه يقرر فى كتابه هذا أن معرفتنا الأخلاقية إذا حللناها ألفيناها تنطوى بالضرورة على اعتراف ضمنى بوجود الله الذى يوجه الكون توجيها يوصله إلى غاية أخلاقية وإلى خلود النفس البشرية .

على أن أهم ما يعرف به تيلر فى ميدان الفلسفة هو أستاذيته فى فلسفة أفلاطون ، وهى أستاذية تعمق صاحبها فى البحث والدرس تعمقا يندر أن تجد له فى الباحثين ضريبا ؛ فهو باحث أكثر منه فيلسوفا أصيلا ذا مذهب خاص ؛ وبينما هو مشتغل ببحوثه تلك إبان مقامه فى سنت أندروز ، خرج على العالم برأى اشترك فيه مع بيرنت ، ولقد أطلق عليه بعدئذ اسم « زندقة بيرنت وتيلر » إشارة إلى أنهما قد خرجا برأيهما ذاك على السائد بين الباحثين (وكان بيرنت عندئذ هو أستاذ اللغة اليونانية فى جامعة سنت أندروز) وذلك أن بيرنت وتيلر قد زعما أن المحاورات الأفلاطونية لا يجوز أن تحسب معبّرة عن آراء أفلاطون نفسه ، إذ الرأى الشائع عنها هو أن أفلاطون قد أجرى على لسان سقراط فيها ما هو فى الحقيقة آراء أفلاطون ، كأنما سقراط فى تلك المحاورات لا يزيد على وسيلة درامـيّة فنية استخدمها المؤلف ليجعل منها قناعا يستتر وراءه ؛ وحقيقة الأمر — عند بيرنت وتيلر أن أفلاطون قد سجل فى محاوراته

حقيقة الواقع التاريخى ، فما يقوله سقراط فى سياق هذه المحاورات هو بعينه ما قاله سقراط فعلا — من حيث المضمون الفكرى للرأى المساق — وليس هو بالقول المستعار له من عند مؤلف المحاورات ؛ وبهذا تكون المحاورات الأفلاطونية وثيقة تاريخية تثبت الواقع وتصور الأشخاص بمذاهبهم الفعلية وآرائهم الحقيقية كما قد عرفهم القرن الخامس قبل الميلاد .

ثم إن « زندقة بيرنت وتيلر » هذه التى خرجا بها على الشائع المألوف لم يأخذ بها كثيرون بعدهما ، لكنها كانت ذات أثر بالغ فى توجيه الدراسات الأكاديمية فى التراث الأفلاطونى ، ولسنا نعرف من المؤلفات التى بسط بها أصحابها زبدة الفلسفة الأفلاطونية ما يفضل كتاب تيلر الذى أسماه « أفلاطون — الرجل ومؤلفاته » .

وهذا الكتاب الصغير الذى نقدمه اليوم إلى القراء ، والذى صدر أول ما صدر سنة ١٩٣٣ ، هو مثل من دقة البحث العلمى فى مجال الدراسات الفلسفية ، فهو ليس بالسياق الذى يستطرد فيه صاحبه ليمتع القارئ بطلاوة الحديث ، مهما يكن فى هذه الطلاوة من تضحية بالحقائق العلمية والتحقيقات المتمهلة المتأنية ، فما إلى ذلك قصد تيلر بكتابة هذا ، ولكنه قصد إلى رسم صورة سقراط رسماً جديداً يخالف ما قد جرى به العرف عنه ، وهو إذ يعيد رسم الصورة لا يندفع وراء الجديد لمجرد كونه جديداً ، بل تراه يتناول المصادر الأولية فيشرحها تشريحاً ويحللها تحليلا ، ويوازن ويقارن ، حتى تخلص له الصورة الصادقة متسقة سليمة من التناقض ؛ فالأمر فى رسم صورة عن سقراط متروك على كل حال لقدرة

الباحث على التفسير والتأويل ، لأن سقراط نفسه لم يترك لنا سجلاً عن أفكاره وأعماله ، فلم يكن الأثينيون الذين عاشوا فى عصره — عصر بركليز العظيم — يؤلفون الكتب ، إذ كان الأدب المعروف عندئذ هو أدب المسرحية لا أدب الكتابة النثرية المرسلة ؛ فلا عجب ألا يكون بين أيدينا اليوم أثر نثرىّ واحد مما قد كُتبَ عن سقراط فى حياة سقراط نفسه — سواء كان هو الكاتب عن نفسه أو كان غيره هو الكاتبَ عنه — حتى بلغ السابعة والأربعين من عمره أو جاوزها ، وعندئذ فقط اتخذ منه أديب مسرحى معاصر له — هو أرستوفان — موضوعاً لملهاته الساخرة « السحاب » ، فأصبحت هذه المسرحية هى الوثيقة الوحيدة التى ذكرت شيئاً عنه فى تاريخ يسبق عام وفاته .

لكن فيلسوفنا لم يكد يفارق الحياة بعد محاكمته وسجنه ، حتى نهضت طائفة من تلاميذه وأتباعه ومحبيه لتكتب فى ذكراه ، فتصف شخصيته وتسجل محاوراته ؛ ولقد بددت الأيام أكثر هذه الآثار ، وما أبقت سوى القليل . ومن حسن الحظ أن يكون بين هذا القليل النادر سلسلة رائعة من المحاورات التى أنشأها أفلاطون وجعل سقراط شخصيتها الرئيسية ، وكذلك كتاب « الذكريات » من تأليف زينون « دفاعا عن « الأستاذ » ، وآثار قليلة أخرى ؛ وتلك هى المصادر الأصلية لأى بحث أصيل يُكتب عن سقراط ؛ فإذا تذكرنا حقيقة هامة هى أن هؤلاء الذين تصدوا لكتابة ذكرياتهم عن سقراط كانوا يصغرونه بفترة طويلة ، فأفلاطون يصغره بثلاثة وأربعين عاماً ، وزينون يصغر

أفلاطون ببضع سنوات ، تبين لنا فى وضوح أن كل ما يُذكر عن حياة سقراط — وبخاصة فى مراحلها الأولى — إنما هو من إملاء الذاكرة بعد أن مضى على الأصل المذكور نصف قرن من الزمان على أقل تقدير.

فلا مناص — إذن — لمن يؤلف عن سقراط ، من الاعتماد على قوة تأويله للوثائق الباقية ، ولا يفاضل بين تأويل وتأويل إلا فى مدى اتساق العناصر فى كل منهما ؛ وفى هذا الكتاب الذى نقدمه إلى القارئ العربى اليوم أحد التأويلات لتلك الشخصية الفلسفية الفذة ، وهو تأويل نتج عن دراسة دقيقة وعميقة جادة ، قام بها أستاذ للفلسفة مشهود له بالكفاءة العلمية النادرة ، وقد تولى نقله إلى العربية الأستاذ محمد بكير خليل كبير مفتشى الفلسفة فى وزارة التربية والتعليم بالقاهرة ، فجاءت ترجمته صورة أمينة دقيقة واضحة ، وستصبح إضافة كبيرة الشأن إلى المكتبة الفلسفية العربية .

١٨ أكتوبر ١٩٦١

زكى نجيب محمود

الفصل الأول

تمهيد

إن ترجمة حياة الرجل العظيم ، وخاصة حين يكون من أبناء عصر غابر ، لا يمكن أن تكون مجرد تسجيل لحقيقة لا جدال فيها . وحتى حين تتوافر مثل هذه الحقائق ، فإن مهمة المترجم الحقيقية تنصرف إلى تفسيرها ، إذ عليه أن ينفذ إلى ما وراء الأحداث المجردة ليتبين ما تكشف عنه من هدف وطابع . ولن يتمكن من ذلك إلا بجهد خياله الإنشائي .

وفي حياة الشخصيتين التاريخيتين اللتين كان لهما في حياة البشر أثر عميق — وهما عيسى وسقراط — نجد أن الحقائق التي لا تقبل الجدل نادرة بصورة استثنائية . وربما كانت هناك حقيقة واحدة عن كل منهما لا يستطيع أحد أن ينكرها دون أن يسقط حقه في أن يحسب من العقلاء . فمن المؤكد أن عيسى « قد عذب في حكم بيلاطس البنطي » ولا يقل عن ذلك ثبوتاً أن سقراط قد أعدم في أثينا بتهمة عدم التقوى والصلاح « في عام لاخس » (٣٩٩ ق . م .) وكل بيان عن أحدهما يتجاوز هاتين العبارتين لا يعدو أن يكون من قبيل التكوين الشخصي البحت . ومن ثم فلا بد من التقديم لهذا العرض السريع المتواضع ، ببعض الملاحظات عن المصادر التي استقى منها المؤلف المادة التي استخدمها في تكوينه للموضوع ، والأسس التي استرشد بها في استخدام هذه المادة .

أما سقراط نفسه فلم يترك لنا سجلاً عن أفكاره أو أعماله . وكان ذلك نتيجة مباشرة لطبيعة المجتمع الذى عاش فيه . وقد كان سقراط بمولده ونشأته رجلاً من أبناء عصر عظيم – عصر بركليس ، وإن كانت الفترة من حياته التى نعلم عنها أكثر ما نعلم ، وهى فترة شيخوخته ، قد امتدت فى زمن يغاير زمن صباه ويقل عنه سعادة . والواقع أنه كان رجلاً فى الأربعين من عمره يوم وفاة ذلك السياسى القدير . ولم يكن الأثينيون الذين عاشوا فى تلك الأيام العظيمة يؤلفون الكتب ، فقد كان العصر عصر المسرحيات الحزينة ، ولكنه لم يكن عصر الأدب النثرى . ذلك هو السبب فى أننا لا نملك تدوينا معاصراً لأىّ مما قاله أو فعله سقراط حتى قارب الخمسين من عمره — فيما عدا إشارة واحدة مفيدة ، وإن كانت لا ترقى إلى مرتبة اليقين القاطع . ذلك أنه كان قد بلغ السابعة والأربعين أو جاوزها حينما اختاره كل من الشاعرين الهزليين الشهيرين . أرسطوفانيس Aristophanes ، وأمبسيس Amipsies — لأمرٍ ما — هدفاً لمسرحيتهما الهزلية الساخرة لسنة ٤٢٣ ق . م وتبعهما فى ذلك مؤلف هزلى ثالث يدعى يوبوليس Eupolis بعد عامين ؛ فما تزال بين أيدينا الصورة الهزلية البارعة ، مسرحية «السحب» لأرسطوفانيس ، وإن كانت النسخة التى لدينا ربما قد جرى عليها بعض التعديل من قلم المؤلف ، وهى الوثيقة الوحيدة التى تتحدث عن سقراط فى تاريخ يسبق عام وفاته .

وقد أدى الأثر العميق الذى تركته محاكمة الفيلسوف ووفاته إلى أن تبرز إلى الوجود فى الحال طائفة كبيرة من المؤلفات ، أراد بها الشبان

الذين وقعوا تحت تأثيره أن يحفظوا ذكراه بوصف شخصيته وتسجيل محاوراته . على أن الكثير من هذه المادة قد فقد ، ولكننا ما نزال نملك تلك السلسلة الرائعة من المحاورات التي جعل أفلاطون الشخصية الرئيسية فيها شخصية سقراط ، وكتاب «ذكريات» الذي ألفه كسينوفون Xenophon دفاعا عن «الأستاذ» ، ومؤلفا أصغر منه أو مؤلفين من تأليفه كذلك في الغرض ذاته، بالإضافة إلى صفحات قليلة من محاورات سقراط كتبها ثالث من المعاصرين هو إيسخينيس الأسفيتوسي Aeschines of Sphettus وهذه بطبيعة الحال هي المصـــادر الرئيسية لأي موضوع يكتب عن الفيلسوف . والمشكلة هي في معرفة الطريقة المثلى لتناول هذه المصادر . فمن المهم أن نذكر أن الكتاب الثلاثة جميعا كانوا أصغر سنا من بطلهم بكثير . فقد كان أفلاطون يصغر سقراط بثلاث وأربعين سنة تقريبا ، ويكاد يكون من المؤكد أن زينوفون كان يصغر أفلاطون ببضع سنوات . ومع أننا لا نملك تواريخ محددة لأسكينس إلا أنه لابد أن يكون معاصراً لزميليه على وجه التقريب[1] .

(١) ولد سقراط سنة ٤٦٩ ق . م. أو ما قبلها ، وأفلاطون سنة ٤٢٨/٧ . وقد كان زينوفون يعتقد أن شدة حداثته قد أعجزته عجزاً بالغاً حين اختير واحدا من القواد في انسحابه العشرة آلاف (أنا باسيس Anabasis ٣ — ١ ، ٢٥) ومن ثم لا يكون من المحتمل أن يكون قد ولد قبل سنة ٤٢٦/٢٥ على وجه التقريب . وقد ذكر أفلاطون أسكينس (محاورة الدفاع ٣٣ هـ) على اعتبار أنه شاب صغير ربما كان أبوه قد دعي للشهادة أمام الهيئة التي وجهت الاتهام لسقراط ، إذ كانت هذه الهيئة قد ظنت حقاً أن سقراط قد أفسد ولده .

وقد كان هو الوحيد من بين الثلاثة الذي شهد مقتل سقراط (فيدون ٥٩ ب) فقد كان أفلاطون مريضاً وكان زينوفون في « مكان ما من آسيا » .

وعلى ذلك فليس من بين الثلاثة من يمكن أن تكون لديه ذكريات موثوق بها عن سقراط كما كان قبل الخامسة والخمسين ، وحين يحدثوننا بشيء عن حياته الأولى أو المبكرة فلن يكون ذلك عن علم أصيل(١) .

ولا تظهر التراجم كلون من الأدب معترف به بين الإغريق إلا في القرن الثالث ق . م (٣٠٠ — ٢٠٠ ق . م) من حيث هي خاصة من خصائص عصر الإسكندرية . وكان الفلاسفة ، كالشعراء ، قد أصبحوا في ذلك العهد موضوعات تثير شغف الجمهور القارئ ، وقد انبرى أكثر من واحد من الكتاب لإرضاء هذا الشغف في نفوس القراء . وقد ضاعت الكتب التي ألفت على هذا النحو ، ولكن مادتها بقيت لنا في كتاب « سير الفلاسفة » الذي يحمل اسم ديوجنيس لايرتيوس Diogenes Laertius الذي لا يعرف عنه أحد شيئاً في خلاف هذا الموضوع ، ويرجع تاريخ الكتاب في صورته النهائية إلى حوالى سنة ٢٠٠ م وماذكر في هذا المؤلف عن سقراط هو الهيكل الرئيسي للمادة التي كانت معروفة في هذا الموضوع ظناً أو يقيناً لدى رجال الأدب الذين عاشوا في عهد البطالمة أو بعده . ولاشك أنه احتفظ لنا بمادة في غاية الأهمية تدعمها أسماء المؤلفين القدامى الذين يشهدون بصدقها . ولكن كتاب السير في

---

(١) ومن ثم فحين يحدثنا أفلاطون في محاورة تياتيتوس Theatetus عن الأثر الذي انطبع في نفس سقراط من البطل الشاب المذكور في المحاورة (والذي أصبح فيما بعد أبرز الرياضيين في الأكاديمية) فهو يكتب عن أشياء يعرفها معرفة وثيقة . أما حين يصف مقابلة سقراط في شبابه لبارمنيدس Parmenides وزينون Zeno فهو يعالج أحداثاً يرجع تاريخها إلى أكثر من عشرين سنة قبل مولده .

عصر الإسكندرية كانت تعوزهم المعايير الصحيحة للنقد والتحليل . ولم يكن الجمهور الذى يكتبون له يطلب الدقة بقدر ما يطلب القصص المثيرة والفضائح والحكايات التى تتسم بسرعة البديهة ، وكان على الكاتب أن يدرس ذوق جمهوره . أضف إلى ذلك أن المؤلف فى هذا العصر لم يكن فى وضع ملائم يمكنه من التثبت من الحقائق الخاصة بحياة رجل أثينى من أبناء القرن الخامس (قبل الميلاد) . فالمادة أمامه ضئيلة ، ويتألف معظمها من إشارات عابرة غير مشروحة ، وكثيرا ما تكون فكاهات محلية فى إحدى الهزليات ، لا يقل غموضها بالنسبة لأبناء عصر الإسكندرية عما هو بالنسبة إلينا ، ولا يجوز أن نتوقع من التراجم المصنفة فى ظروف كهذه أن تلقى كثيرا من الضوء على شخصية أى إنسان ، وبخاصة على شخصية رجل كان ـ مثل الدكتور جونسون ـ قد بدأ يصبح فى أثناء حياته محورا لأسطورة . وعلى ذلك فليس أمامنا حين نتحرى الحقيقة إلا أن نعتمد اعتمادا يكاد يكون تاما على ما يقصه علينا من أخبار سقراط ، أولئك الذين كان فى وسعهم أن يتحدثوا عن معرفة مباشرة ، أى أن نعتمد بصفة أساسية على أرسطوفانيس وأفلاطون وزينوفون .

إلى أى حد نستطيع أن نثق فى أن هذه الصورة التى يقدمها أحد هؤلاء الكتاب أو جميعهم تصدق على سقراط ، إنه لو صدقت نظريات معينة شاعت فى القرن التاسع عشر ، لكان من الخطل أن نصدق أحدا منهم . مثل ذلك قولهم إن أرسطوفانيس شاعر هزلى وليست مهمته أن يقول الحق بل أن يشوهه . والفروق القائمة بين صورة سقراط كما يرسمها ، وصورته

التي يقدمها لنا كل من زينوفون وأفلاطون ، من «البروز» بحيث لا نستطيع أن نأخذها على أنها جميعها صورة لأصل واحد. فإما أن الشاعر وجمهوره لم يكونا يعرفان شيئا عن بطل مسرحيته البارز ، أو أن الغرض الذي يهدف إليه كان شيئا آخر غير التصوير الهزلي الناجح لشخصيته . أي أنه لا بد أن سخريته لم تكن موجهة لفرد من الأفراد ، وإنما «لحركة» معينة ، وينبغي حينئذ أن نتصور سقراطه مثل «طرطوف» موليير ، على أنه مجرد نموذج خيالي ، ألصق به اسم شخص معين من المعاصرين دون أن يفكر هل أخطأ أو كان على حق في هذا الاختيار . وقد توفرت لأفلاطون دون شك المعرفة الوثيقة والمواهب الفنية التي تؤهله لرسم صورة صادقة حية . ولكن كان الاعتقاد السائد أن هدفه لم يكن تصوير الشخصيات ، بل كان سقراط الذي صوره لنا إما تعبيرا عن صورة خيالية تصف لنا ما يجب أن يكون عليه الفيلسوف العظيم ، وإما قناعا يختفي وراءه . وكان يُظَنّ أن ذلك يمكن إثباته عن طريق التباين المزعوم بين تصوير أفلاطون وتصوير زينوفون .

فسقراط — الذي يصوره لنا زينوفون — معلم ممتاز ، وإن تكن طريقته مملة إلى حد ما ، فهو يدعو إلى أخلاق طيبة في متناول الإدراك الفطري ، وهو شديد النفور من التأملات التي لا تصدق على الواقع المادي والعلم غير النافع[1] . أما «سقراط» أفلاطون فهو رجل مرح وفيلسوف

(١) سنرى على الرغم من ذلك أن الأقوال الشائعة في هذه النقطة تتجاهل فقرات معينة ذات دلالة عظيمة من كلام زينوفون نفسه .

عظيم ، له معتقدات عميقة فيما وراء الطبيعة ومعرفته واسعة بأعلى مراتب العلم فى عصره . ومن ثم ظُنّ بأن العبقرية والفكاهة والميتافيزيقا قد أقحمها أفلاطون فى الصورة من عنده ، وأنها عرض مقنع لروح أفلاطون[1] . ومن ثم كان الاستدلال المبدئى هو أن الطريقة الصحيحة لاستخلاص الحقائق التاريخية عن سقراط أن نؤمن بصدق تصوير زينوفون ، ونتخذ من أقواله وسيلة للهبوط بالشخصية العظيمة التى ترسمها محاولات أفلاطون إلى نسب يرتضيها العرف . ذلك أن «سقراط التاريخى الحقيقى » هو الذى توفرت لكتاب القرن التاسع عشر معرفة كبيرة به ، يعنى فى الحقيقة « سقراط » أفلاطون بعد تجريده من العبقرية . ومع ذلك فإننا حين نتعمق فى البحث يتضح لنا أن هناك أسباباً وجيهة تزعزع ثقتنا بكفاية زينوفون نفسه من حيث هو شاهد عدل فى الموضوع . فليس فى كتاباته ما يدل على أنه كان فى وقت من الأوقات وثيق الصلة بسقراط . ويبدو من المؤكد أنه لم يكن ليتجاوز الرابعة والعشرين من عمره — حين رأى « الأستاذ » للمرة الأخيرة[2] وعلى أية حال فقد كان

---

(١) فقد كان يعتقد بصفة خاصة — وما زال هذا اعتقاد الفريق الأكبر من المفكرين — أن نظرية المثل المبثوثة تعاليمها فى محاورتى فيدون والجمهورية لابد أن يكون أفلاطون قد ابتدعها بنفسه بعد وفاة سقراط ، وقبل تأليف فيدون . وإذا كانت المحاورة تمثل سقراط يوم موته يتحدث عن هذه النظرية بوصفها نظرية قد اعتنقها منذ شبابه ، فإن نظرية كهذه — لو صدقت — لكان مؤداها أن أفلاطون شخص لا يوثق به إطلاقا فى أى شىء يحدثنا به عن سقراط .

(٢) من المؤكد أن زينوفون لم ير سقراط قط بعد رحيله من أثينا سنة ٤٠١ ليشترك فى حملة الأمير قورش بل إننا لا « نعلم » إن كان قد رجع إلى أثينا بعد ذلك قبل نفيه سنة ٣٩٤ . وربما أمكننا أن نستدل على عدم وثاقة صلته بسقراط من أن ذكره لم يرد قط =

بعيداً فى آسيا حين حوكم سقراط وأدين ، ولا بد أن كتاباته عن سقراط قد ألفت فى فترات مختلفة بعد عودته إلى اليونان ، حين كان يعيش منفياً من أثينا ، لا تكاد تواتيه الفرصة للرجوع إلى غيره من الأحياء من أعضاء حلقة سقراط . وفى بعض هذه الكتابات يجهد تفكيرنا إلى حد بالغ حين ينسب إلى سقراط الذى اشتهر بحبه المدينة ، حبه هو العميق للزراعة وحياة الريف وثمة واحدة من أبرز مؤلفاته — تلك المسماة « ذكريات Memorabilia » ، قد تضاءلت قيمتها إلى أقصى حد بسبب دفاعها عنه دفاعاً صريحاً . كذلك أشير إلى ما يبرر الاعتقاد بأن زينوفون قد أخرج ذكرياته — ذكريات ربما يعوزها التفصيل الكافى — باستخدام محاورات أفلاطون ذاتها مادة للصورة التى يرسمها ، وقد تعود على تمحيصها فى وقت من الأوقات . وهذا يفسر لنا السبب الذى حدا بأكثر الباحثين الأوائل فى مطلع القرن الحالى إلى الشك المطلق فى إمكان الحصول على أية معرفة بسقراط الحقيقى[1] . ومثل هذا « التشكك » لا بد

= فى حديث أفلاطون الذى يروى لنا الكثير عن أعضاء حلقة سقراط : ومن جهة أخرى نجد أن أسكينس قد أورد فى محاورته أسبازيا Aspasia ذكر رجل يدعى زينوفون « ربما » كان هو الكاتب الذى نحن بصدده ، وإن كان الباحثون قد وجدوا صعوبة فى القول بأنه كان هو زينوفون نفسه ، وقد نشأت الصعوبة من أن زينوفون الذى ذكره أسكينس شاب حدث متزوج بينما لا نملك دليلا على أن كاتبنا قد تزوج فى مثل هذا الوقت المبكر من حياته .

(١) لقد تحدث عنه ديلز — وهو أبرزهم جميعاً — فلقبه « بالشخص المجهول » « س » (والمصدر المباشر الذى أرجع إليه هذا القول هو رسالة لم تنشر من ديلز إلى أحد الباحثين الإنجليز) وأحسب حسابا للفكرة التى تبخرت اليوم — والتى تقول إن ملاحظات أرسطو العرضية عن فكر سقراط يمكن استخدامها أداة لمراجعة آراء زينوفون وأفلاطون عنه ، فقد كانت قد مضت ثلاثون عاما على وفاة سقراط حين قدم أرسطو إلى أثينا أول مرة . وأعتقد =

وأن يضع المؤرخ فى مأزق عسير عليه الخروج منه، ولكننا فى سقراط نملك لحسن الحظ مخرجاً من هذا المأزق إذا عنينا بتفسير المصادر التاريخية القائمة على ضوء بعض الأسس العامة الشديدة .

ولنبدأ ببحث ما لشهادة أرسطوفانيس وإخوته المؤلفين الهزليين من قيمة . ولنذكر بادئ ذى بدء أن موضوع الهزلية الأثينية القديمة انصرف إلى مسخ الشخصيات — مسخاً لا يعنى السخرية « بنماذج من شخصيات اجتماعية معينة » . كذلك كان من الأمور الأساسية لنجاح المؤلف الهزلى أن تعرض مسرحيته الساخرة لشخصية سادت سمعتها عند الجمهور ، ومن ثم نستطيع أن نكون على يقين تام من أن سقراط حين تعرض لسخرية أرسطوفانيس كان قد أصبح شخصية معروفة ، وأن الشاعر علق أهمية كبرى على براعته فى مسخ الصورة التى يقدمها بحيث تستطيع أن تستهوى أفئدة الجماهير . كذلك علينا أن نتذكر المبدأ العام الذى مؤداه أن الهزلية الناجحة ينبغى أن تعرض لفضيحة مشهورة ، أو أمر ما يُعتقد أنه كذلك(١) . فلكى تستهوى أفئدة الجماهير يجب أن

═ أننى برهنت كما برهن غيرى على أنه لا يقول شيئاً ذا قيمة عن الفيلسوف السالف إلا أن يكون قد تعلمه (ولا شك عندى فى أنه تعلمه) من قراءته لمحاورات أفلاطون . (انظر كتاب ك. ريتر « المسمى سقراط » ص ٨٣) .

(١) لم تكن مسرحية « السحاب » ناجحة على المسرح ، ولو أننا نفهم من إشارات أفلاطون إليها فى محاورته « الدفاع » أنها كانت قد نالت شهرة فى نهاية حياة سقراط كانتاج أدبى . ولكننا نستطيع أن ندرك السبب فى فشلها على المسرح فى أول الأمر مما يقوله أرسطوفانيس نفسه فى النسخة الباقية بين أيدينا من المسرحية . وذلك أنها لم تكن تشتمل على شىء من مناظر الصخب أو مناظر الدعارة .

تنصرف إلى مسخ شيء موجود بالفعل لا أن تكون مجرد اختراع من عند الكاتب الهزلي الساخر .

ونجد نتيجة لهذا أن أرسطوفانيس يجعل محور مسرحيته تصوير سقراط على أنه زعيم مدرسة أو مذهب نظامي أو شيء من هذا — مدرسة تجمع بين العلوم المادية وما يصح أن نسميه « الروحانية » وبالرغم من أنه من الحماقة أن نحكم على هذه الصورة استناداً إلى ما نتبينه فيها لأول وهلة ، إلا أنه من الحماقة بنفس هذا القدر ألا نسأل أنفسنا ما هي الحقائق الأصيلة التي تفسر الصورة الهزلية ، وما إذا كنا لا نستطيع أن نتبين تلك الحقائق مرة أخرى من زاوية نظر أخرى في كتابات أفلاطون وزينوفون .

وصحيح أيضاً أن هناك فارقاً واضحاً بين سقراط الذي تصوره مسرحية أرسطوفانيس مع « تلاميذه » في « ندوة فكرية » ، « وسقراط » أفلاطون (أو زينوفون) الذي يتمثل لنا رجلا صاحب « رسالة » يوجهها إلى كل من يستمع إليه ، ولكننا حين نذكر أن أرسطوفانيس كان يتخذ من سقراط موضوعاً لسخريته ، أعني سقراط كما كان — أو كما يعتقد أنه كان — في وقت كان أفلاطون وزينوفون ما يزالان شبه رضيعين ، يصبح هذا الفارق مفهوماً إلى حد كبير ، إذ نرجعه إلى اختلاف الزمن [بين الكاتب الأول والكاتبين الأخيرين] . وربما ثبت لنا أن سقراط كان في الخامسة والأربعين من عمره رجلا مختلفاً في بعض النواحي عنه في الخامسة والخمسين أو الستين ، وأن الدليل على ذلك مستمد فعلا من مؤلفات

أفلاطون وزينوفون ذاتهما ، حين نقرؤها بالعناية اللازمة ، وعلى ذلك فسوف أستعين بالمادة التي وردت في المسرحية الأثينية تبيانًا لهدف هذه الصورة التي أرسمها ، وآمل أن أكون حذرًا بالقدر الواجب .

وحين نعرض لتقدير المفارقات — حقيقة كانت أو مزعومة — بين أفلاطون وزينوفون نفسيهما نجد أن أول ما قد نصطدم به هو أنه قد بولغ في تقديرها بغير موجب . ففيما عدا نقطة واحدة أو نقطتين في التفاصيل ، لا نجد زينوفون — فيما يرسم من صورة — يخالف أي شيء يقوله أفلاطون عن سقراط . إذ الذي يصنعه فعلا لا يعدو أن يكون حذف شيء من التفاصيل أو الهبوط بها إلى مستوى الحوادث الجارية . أما المعلومات التي يزودنا بها فهي محدودة . وفي إمكاننا بالاعتماد على أفلاطون وحده أن نصنف ترجمة كاملة للبطل الذي يتحدث عنه ، من شبابه الباكر إلى سنواته الأخيرة . ولكن من المستحيل أن نؤلف مثل هذه القصة من المعلومات التي يمدنا بها زينوفون[1] ، وإن كانت القراءة الدقيقة كثيرًا ما ترينا أنه يؤيد عرضًا أشياء تعتبر من أهم خصائص البطل فيما ذكر أفلاطون . وكذلك نجد أن الطابع الفردي البارز للصورة التي يرسمها أفلاطون لسقراط تنعدم انعدامًا تامًا عند زينوفون ، الذي يتجاهل معظم الخصائص التي تجعل من بطل أفلاطون « شخصية لها كيانها المستقل » . « فتهكم » سقراط أو طريقته الخاصة في الدعابة ، وطابع

---

(١) لقد حاولت أن أوضح هذا بالتفصيل في مقال نشر في مجلة الأكاديمية البريطانية The Proceedings of the Bretish academy لعام ١٩١٧ـ١٩٨١ (ص ٩٣ وما بعدها) بعنوان « ترجمة أفلاطون لسقراط » .

«الشك السقراطى» الذى يتميز به كلاهما ، يصل إلينا من طريق أفلاطون وحده . أما «سقراط» زينوفون فلا يساوره الشك فى أمر على الإطلاق ، وليس لديه من الدعابة ما يستحق الذكر . ومما لا شك فيه أننا نستطيع أن نفسر ذلك بأن سقراط كان شخصاً عاديا حوّله أفلاطون إلى عظيم من الطراز الأول ، بأن خلع عليه شخصية هى فى الواقع شخصية أفلاطون نفسه[1] ولكن الافتراض الذى لا يقل قوة عن هذا هو أن سقراط الحقيق كانت له تلك المواهب المدهشة التى نسبها له أفلاطون ، وأن عدم وجودها فى الصورة التى يعرضها زينوفون يرجع إلى ضعف بصيرة المؤلف أو افتقاره إلى القدرة على التصوير المبدع فربما كانت الشخصية العادية هى شخصية المؤلف ذاته لا شخصية الرجل الذى يتحدث عنه . وينبغى كذلك أن نتذكر أن الغرض الواضح الصريح من كتاب «الذكريات» يقتضيه أن يصور سقراط فى صورة الرجل العادى . ومع أن الكتاب يفتقر إلى وحدة تمسك بأطراف الموضوع ، ومن الواضح أنه قد كتب منجماً إلا أن طابعه العام يتحدد من أنه قد كتب منذ البدء بقصد واضح وهو الدفاع عن سقراط إزاء التهم التى وجهت إليه فى أثناء المحاكمة. وهدف زينوفون هو أن يقول إن القضاة الذين أدانوا سقراط بالإلحاد وتضليل «النشء» انساقوا وراء ما استندوا من أسس أخلاقية ومعايير ،

---

(١) إن أكثر من واحد من المؤلفات الممتازة عن أفلاطون يفندها مثلا ذلك الزعم بأن الصورة المدهشة التى رسمها أفلاطون لسقراط فى محاورة «المأدبة Symposium» هى تعبير سيكلوجى عن شخصية أفلاطون نفسه ، وسواء أكانت كذلك فى الواقع أم لم تكن، فأفلاطون — على أقل تقدير — لم يصرح بأن ذلك كان هدفه .

قد أخطئوا الاستنتاج من مقدماتهم ذاتها ، لأنه كان في الحقيقة نموذجا لكل ما يفهمه متهموه من معاني التقوى ، وإن الأخلاق التي كان يسير عليها في واقع حياته ويبشر بها كانت على وجه الدقة هي الأخلاق التي يود الأثيني الصالح من عامة الناس أن يحتذيها في حياته ، ويلقنها أبناءه لو استطاع . ومن الواضح ولاشك — كما قال بيرنت Burnet — أن مثل هذا الدفاع يخفق في أداء مهمته لأنه - على وجه التحديد - قد جاوز المدى في نجاحه ؛ فلو أن سقراط كان حقا بالصورة التي يحملنا زينوفون على تصديقها ، لما قدم للمحاكمة قط . إن هدف زينوفون الدفاعي ليفرض عليه أن يطمس بقدر ما يستطيع كل لمحة في شخصية بطله تنم عن الأصالة والتفرد ، ومن ثم تجعلها في أفكار القارئ الضيق الأفق المحكوم بالتقاليد ويتبع ذلك أنه يتعين علينا ونحن نقرأ قصته ألا ننسى هذه القاعدة التي تنطبق على مجادلة من هذا النوع . وهي أن أهم ما يجيء على لسان المدافع هو الاعترافات التي تجيء عرضا ، في حين أنها لا تخدم القضية التي يدافع عنها فزينوفون مثلا يسيء إلى قصده حين يقر عرضا في إحدى فقراته بأن سقراط كان في فترة من الفترات يمثل رئيس جماعة من طلبة العلم[1] ، وفي أخرى أنه كان على علم واسع بالهندسة والفلك[2] ، وفي ثالثة أن الفيثاغوريين الأجانب كانوا من أصدقائه المقربين[3] وفي هذا ما يضفي معنى خاصا على دفاعه في هذه النقط جميعا . وحتى لو فرضنا أنه هنا يستمد معلوماته

---

(١) الذكريات ، ١ ، ٤ ، ١٤

(٢) الذكريات ، ٤ ، ٧ ، ٢ — ٦

(٣) الذكريات ، ١ ، ٢ ، ٤٨

من بعض محاورات أفلاطون مثل « فيدون » التي لا شك أنه كان قد قرأها ، فإن عمله هذا يثبت أنه وجد تصوير أفلاطون مطابقا لما كان يعرفه عن سقراط . فإذا قرأنا زينوفون على ضوء هذه التحذيرات التي ذكرناها آنفا ، فأعتقد أننا لن نجد تناقضا بيّنا بين صورته وبين الصورة الكاملة التي يقدمها لنا أفلاطون . بل سنجدها مؤيدة لها في بعض النقط وبصورة قاطعة . ولكن ما يزال أمامنا أن نواجه الاعتراض الرئيسي الذي وجه إلى محاورات أفلاطون كتصوير صادق لحياة وأفكار هذه الشخصية التاريخية ومن الواضح أننا دون أفلاطون لا نملك مادة ننشىء منها ترجمة متصلة لسقراط تلقي أي قدر من الضوء على شخصيته . وصحيح كذلك أن أفلاطون يعطينا صورة للشخصية الرئيسية في محاوراته ، صورة كاملة واضحة لا تناقض بين أجزائها . ولكن هـــذا في ذاته لا يقطع بأن « سقراط » أفلاطون قد لا يكون من أوله إلى آخره من نتاج الخيال الإبداعي مثل عطيل وفولستاف ، وما تزال بعض الدوائر العلمية تعتقد أنه كذلك ، وإن تكن هذه الفكرة تضاءلت بحيث لم تعد كما كانت عليه قبل خمسين عاما فهل نستطيع أن نقدم سببا معقولا لرفض هذا الاعتقاد الذي ساد بصفة عامة في وقت من الأوقات ؟ . إن مناقشة هذه النقطة مناقشة تهدم كل افتراض ينفيها أو يأتي عليها يستغرق مجلدا بأكمله ، ولكني أستطيع هنا أن أشير إلى الاعتبارات الرئيسية التي تبدو لي حاسمة(١)

---

(١) في الوقت الذي لا يوجد فيه مؤلف خاص بهذا الموضوع فإني أحيل القارئ أولا =

فى المقام الأول نجد أن الأبحاث الدقيقة التى قام بها الباحثون من أمثال لويس كامبل Leuis Campbell وك. ريتر C. Ritter ولوتوسلافسكى Lutoslawski وغيرهم ، قد أثبتت بطريقة قاطعة أن طائفة من محاورات أفلاطون الهامة مثل «السوفسطائى» و «السياسى» و «فيلابوس» و «طيماوس» و «القوانين») بما لها من خصائص متميزة فى اللغة والأسلوب ، لا بد أن تكون لاحقة فى كتابتها لسائر مؤلفات الفيلسوف (أفلاطون) ، وأنها تنتمى بشكل واضح إلى فترة متأخرة من حياته كان فيها على رأس مدرسة منظمة ذات مذهب خاص بها محدد أشد التحديد . وواضح أن هذه المؤلفات قد كتبت فى مرحلة متأخرة جدا عن الفترة التى كتب فيها الجانب الأكبر من محاورات أفلاطون ، وأن من بين هذه المجموعة الأخيرة محاورتين أو ثلاثا تبدو من ناحية الأسلوب مرحلة انتقالية وهى « الجمهورية » و « فيدروس » و « تيتاتوس » . ومن ثم فإن هناك إجماعا بين الباحثين على أن معظم محاورات أفلاطون لا بد أن تكون قبل أن يؤسس أفلاطون مدرسته — الأكاديمية — بصورة مؤكدة ، وأن

= وقبل كل شىء إلى بعض مؤلفات الأستاذ بيرنت، وخاصة ما قاله عن « سقراط » فى « دائرة معارف الدين والأخلاق » التى يصدرها هيتنجز ، المجلد الحادى عشر ، ومقدمة الطبعة التى أصدرها من محاورة فيدون (أكسفورد ١٩١١) « والفلسفة الإغريقية » الجزء الأول من طاليس إلى أفلاطون (١٩١٤) فصل ٨ ، « وحياة سقراط » . وأحب أن أضيف مرجعا آخر هو المؤلف الممتاز الصغير الحجم الذى ألفه قسطنطين ريتر البحاثة المبرز فى الفلسفة الأفلاطونية بعنوان « سقراط » (توبنجن ١٩٣١) ومن بين المؤلفات الأقدم عهدا كتاب جيد بصفة خاصة هو كتاب ليفو بروتز المسمى Das Literarische Portorät der Griechen (١٨٩٦) .

المجموعة من أول « السوفسطائى » إلى « القوانين » قد ألفت بعد أن توطد مركز الأكاديمية كمؤسسة علمية نظامية ، وأن مؤلفات المرحلة الانتقالية قد كتبت إما فى مبدأ تأسيسها وإما فى العقود الأولى لتأسيسها[١] . هذا وبينما نجد فى المحاورات الأولى أن سقراط هو دائما الشخصية الرئيسية فيها والرجل الذى يدير المناقشة ، فإننا نجد هذا يتغير تغيراً تاما فى المجموعة التى تبدأ « بالسوفسطائى » فلا نرى سقراط الشخصية البارزة إلا فى واحدة فقط من المحاورات المتأخرة (هى محاورة « فيليبوس » التى تتناول موضوعات خاصة بعلم الأخلاق وعلم النفس الأخلاقى) بينما هو فى « السوفسطائى » و « السياسى » و « طيماوس » حاضر بشخصه ولكنه لا يشترك فى المناقشة . وفى كتاب « القوانين » نجده قد أهمل إهمالا تاما ؛ ونجد أن الذى يشرح المذاهب المنطقية والسياسية فى محاورتى « السوفسطائى » و « السياسى » زائر من إليا Elea لا يذكر اسمه ، وأن الذى يتناول النظريات الطبيعية فى « طيماوس » إيطالى من أتباع فيثاغورس ، أما المنهج الفقهى العظيم فى كتاب « القوانين » فيقدمه أثينى مجهول . ولست أرى سببا لهذا

(١) إن التاريخ الدقيق لتأسيس هذه الأكاديمية ، وهى أول جامعة أوربية ، ليس معروفا ، ولكن لا يمكن أن تكون أسست قبل بلوغ أفلاطون الأربعين من عمره (٣٨٨/٧ ق.م.) وليس من المحتمل أن تكون قد تأخرت عن ذلك بكثير . وهناك ما يرجح أن تكون محاورة « تيتاتوس » قد كتبت سنة ٣٦٨ ق.م. وهى بالتأكيد آخر كتب « المرحلة الانتقالية » كما أن « الجمهورية » أولها . (وأنا شخصيا أؤيد الذين يرون أن « الجمهورية » لابد فى الأصل أن تكون قد كتبت إما قبل تأسيس الأكاديمية مباشرة وإما فى السنوات الأولى من تأسيسها ، أما المحاورات المتأخرة فى الزمن من أول « السوفسطائى » إلى « القوانين » فيكاد يكون من المؤكد أنها كلها تالية لعام ٣٦٠ ق. م.

التغيير الذى يلفت النظر فى طريقة العرض إلا ذلك الذى يقدمه بيرنت وهو أن إدراك أفلاطون التاريخى لحقيقة سقراط قد منعه من أن يجعل سقراط هو الذى يقوم بعرض اتجاهات ومذاهب فلسفية وعلمية يعلم أفلاطون جيدا أنها من ابتكاره هو وأهل عصره . فلدينا هنا — فيما أرى — برهان أكيد على أن أفلاطون لم يستخدم سقراط قناعا يختفى وراءه ، أو صورة مثالية خيالية لما ينبغى أن يكون عليه « الفيلسوف » . ولو أنه كان قد صنع ذلك فليس من سبب معقول يحـــدوه إلى عدم الاستمرار فى هذا الأسلوب إلى النهاية . فنستطيع إذن أن نطمئن إلى استنتاجنا بأن أفلاطون لم يكن بصورته التى يرسمها قد جنح بتفكيره عن الصورة التاريخية التى رسمها لسقراط فى المحاورات العديدة التى كان ذلك الفيلسوف شخصيتها الرئيسية[1] ، فإن كان قد جنح عنها فلم يكن ذلك عن وعى منه بذلك على الأقل .

---

(١) ينبغى أن نذكر فى هذا الصدد تلك الفقرة العجيبة فى محاورة طيماوس (١٩ ب وما بعدها) حيث يجرى على لسان سقراط اعتراف بعجزه عن وصف مسلك الدولة المشغولة بشئون الحرب أو الدبلوماسية » وينسب عجزه ذلك إلى افتقاره إلى الخبرة السياسية . وليس فى كتاب «الجمهورية» نفسه شىء مثل هذا الإحساس بالقصور فى معلومات سقراط . أما عودة سقراط إلى الظهور بوصفه الشخصية الرئيسية فى محاورة « فيليبوس » فيمكن تفسيره بأن الموضوعات التى تتناولها هذه المحاورة وهى فى صميمها نفس الموضوعات التى تناولتها محاورات سابقة مثل جورجياس . ولسنا نقول بطبيعة الحال إن كل محاورات سقراط الأفلاطونية عبارة عن تسجيل دقيق للمناقشات التى حدثت بالفعل كتسجيلات بوزويل (لأقوال الدكتور جونسون) وإن كان من المحتمل جداً أن يكون بعضها مبنياً على المناقشات الحقيقية . وإنما كل ما نقصده ببساطة هو أن المحاورات قد قصد بها عرض صورة صادقة لهذه الشخصية التاريخية ومكانتها وأوجه نشاطها ونظرياتها فى التفكير .

والأمر الثانى أن هناك مجموعة من مؤلفات أفلاطون الأولى يبدو فيها أنها تستبعد كل هدف غير تسجيل الوقائع التاريخية ، وهى تلك المحاورات التى تتناول ظروف محاكمة سقراط ووفاته (« أوطيفرون » و « الدفاع » ، و « أقريطون » ، و « فيدون ») لقد كانت تلك قضية عامة كما نستطيع أن نحكم من انتقاد أيسوقراط فى كتابه المسمى « Busiris » على الأديب بولقراط ، وفى الكتيب الذى قدم فيه أدلة الاتهام ولا شك أن محاورة « الدفاع » الذى ألفه أفلاطون كان قد انتشر فى غضون سنوات قليلة جداً من المحاكمة ، ولا بد أنه قد اطلع عليه كثير من القضاة الذين حاكموا سقراط بالفعل ، كما اطلع عليه كثير ممن شهدوا المحاكمة ، وإذن فأى تصوير خاطىء للوقائع تحت هذه الظروف كان أمراً بالغ الخطورة والحرج بالنسبة للمؤلف . ونستطيع أن نستنتج من ذلك أن « الدفاع » — بل التحدى فى واقع الأمر — الذى يضعه أفلاطون على لسان أستاذه هو فى جوهره تمثيل صادق لما قيل بالفعل . وإلى هذا الحد — فى الواقع — يتفق اليوم معظم العلماء الذين يقدر لكلامهم وزن (من أمثال ريتر Ritter ، وفيلاموفيتز مولندورف Wilamouwitz—Moellendorff) . ولكنى أعتقد مع بيرنت أننا ينبغى — لكى نكون منطقيين مع أنفسنا — أن نخطو خطوة أبعد فنفس هذه الاعتبارات تنطبق على « فيدون » بما تشتمل عليه من وصف الساعات الأخيرة من حياة سقراط ويحدثنا أفلاطون أنه هو شخصياً كان بعيداً عن مسرح الحوادث بسبب مرضه ، ولكننا نعلم — بشهادة واحد من

تلاميذه(١) — أنه هو وغيره من أعضاء حلقة سقراط قضوا الأسابيع التالية لتنفيذ الحكم فى مدينة ميجارا Megara ، بصحبة الفيلسوف قليدس ، وهو أحد الأشخاص الذين ترد أسماؤهم فى القصة . ومن ثم فلا سبيل إلى الشك فى أن أفلاطون قد تلقى تفصيلات دقيقة عن أحداث ذلك اليوم المشهود ، من عدد من شهود العيان . ومن المؤكد كذلك أن كثيراً من الأشخاص الذين وردت أسماؤهم فى هذه المحاورة متفرجين أو خطباء — إن لم يكن كل هؤلاء — كانوا أحياء حين نشرت محاورة فيدون (مثل إقليدس نفسه ، وسيمياس وهو من أبرز المتكلمين يومئذ) ولست أستطيع أن أتصور أن أفلاطون كان يمكن أن يخلد صورة مضللة لمثل هذا الموضوع — حتى لو رغب فى ذلك — وهو معرض لمن يتعقبه بالتصحيح . وما لم تكن محاورة « فيدون » تعمية مقصودة لغاية معينة ، فيلزم على الفور أن تكون الفكرة الرئيسية فيها ، التى أطلق عليها اسم « نظرية المثل » والتى تقول المحاورة إن سقراط قد اعتنقها فى شبابه وكانت معروفة لدى مستمعيه ، كانت فى الواقع فكرة سقراطية ، ولم تكن كشفاً كشف عنه أفلاطون . فإذا كان الأمر كذلك ، فقد انتفى السبب الذى نفترضه تبريراً للاعتقاد بأن أفلاطون استحل لنفسه العبث بالحقائق التاريخية فى هذه المحاورات ، ولا يكون ثمة سبب يمنعنا من أن نؤمن بما توحى به محتوياتها إيحاء مباشراً — وهو أن هدفها المباشر لم يكن ترويج مذهب خاص المؤلف ،

(١) هو هرمودوروس Hermodorus الذى يقول عن هذه الواقعة (ديوجنيس ليرتيوس ٣،٦) «وكان أفلاطون فى الثامنة والعشرين من عمره حين ذهب هو وغيره من تلاميذ سقراط إلى اقليدس فى مدينة ميجارا » وترد العبارة ذاتها فى نفس الكتاب مرة أخرى .

قبل كان الاحتفاظ بذكرى مفكر عظيم لم يترك لنا شيئاً من تأليفه[1] .

ويبدو أن الحقيقة فى الواقع هى أن أفلاطون — مثله مثل كانت — هو أحد أولئك الفلاسفة الذين لم تتبلور اتجاهاتهم الفكرية إلا فى أواسط أعمارهم فهو قبل أن يكون فيلسوفاً صاحب مذهب ومدرسة خاصين به ، كان فناناً مسرحياً عظيما ، وقد استخدم مواهبه الفنية فى أن ينفخ الحياة فى سقراط وحلقته ، لجيل من الناس لولاه لما كان هؤلاء بالنسبة إليهم أكثر من أسماء . ويحتمل أنه وقت كتابة هذه المحاورات الفنية العظيمة لم يكن قد اتخذ لنفسه بعد « مذهباً » خاصاً ، وفى الوقت الذى أصبحت له فلسفة أفلاطونية يذيعها على الناس ضعفت ملكته المسرحية . وينبغى أن نتذكر أن أفلاطون — كما تدل جميع الظواهر — كان هو الذى أبدع المحاورات السقراطية كلون من ألوان الأدب[2] . وليس من المفهوم

(١) ليس صحيحا — كما يظن أحياناً — أن أرسطو قال فى يوم من الأيام إن نظرية المثل لم تكن معروفة لدى سقراط . ومع ذلك فلو أنه قال ذلك فليس هذا إلا استنتاجا خاصا منه . أما الصحيح فهو أن أرسطو يربط عادة بين النظرية وبين أسماء أفلاطون وأتباعه ، وأنه من المحتمل أنه كان يشير إلى أفلاطون حين يتحدث فى إحدى الفقرات (الميتافيزيقا 1078. bll) عن « أولئك الذين قالوا لأول مرة إن هناك صوراً كلية أو مثلا » (وإن كان ذلك غير مؤكد) ولما كان من المؤكد أن النظرية قد دخلت عالم التأليف الفلسفى عن طريق محاورات سقراط الأفلاطونية فان مثل هذا التعبير يصبح طبيعياً على أية حال .

أما القول الوارد فى « أخلاق نيقوماخوس » بأن الذين استحدثوا النظرية هم « أصدقاء أرسطو » (E. N., 1096 a B) فلا يثبت شيئا ذلك أن أية نظرية لسقراط تتمتع بمكانة يستطيع معها أى تلميذ لأفلاطون أن يتحدث عنها بوصفها نظرية صديقة (نظرية من عمل أصدقائه) .

(٢) من المؤكد — أو يكاد يكون من المؤكد — أن كل كتابات زينوفون السقراطية متأخرة عن معظم محاورات سقراط الأفلاطونية .. ويبدو أن هذا يصدق كذلك — بقدر ما تثبته المعلومات التى بين أيدينا — على محاورات أسكينس .

سبب اختياره لمثل هذا الأسلوب فى الحوار ، إذا كان هدفه الأساسى هو أن يغرس فلسفته الخاصة . ولو أن الهدف انصرف فى الأصل لغرس فلسفته لاستتبع هذا أن مثل هـذا الأسلوب الحوارى بين أشخاص معروفين ما كان ليصلح أداة للتعبير فى جيل يسبق جيل المؤلف (أفلاطون) . أما إذا كان هدف أفلاطون الأساسى هو الاحتفاظ بذكرى رجل عظيم وعصر عظيم ، فإننا ندرك على الفور لماذا فضل أن يبتدع تلك الصورة الأدبية الخاصة التى تناسب غرضه إلى أقصى حد .

ولقد تساءل الناس عن السبب الذى حدا بأفلاطون أن يؤلف كل هذه المؤلفات ، وبكل هذه العناية ، إذا كانت الأفكار التى تتضمنها ليست أفكاره الخاصة ، وإنما هى — فى خطوطها الرئيسية كلها — أفكار قوم آخرين . والسبب الواضح لذلك أنه كان يعيش — كما كان يعلم جيداً — فى مجتمع قد مرت به حرب وكان عهده فى المجد قد انقضى . فكان المجهود الذى قام به ليحيا فى عالم الخيال ذلك المفكر البارز من مفكرى الأيام المجيدة فى القرن الخامس والدائرة التى كان يتحرك فيها ، نوعاً من الوفاء بالواجب نحو سقراط ، ونحو مجد أثينا الزائل ، بما يقترن بهذا من واجب نحو الأسرة الأثينية الشهيرة التى كان ينتمى إليها أفلاطون ، ومهرباً فى الوقت نفسه من انكسار القلب الذى كان يحس به أفلاطون والذى نراه مصوراً فى « الرسالة السابعة من رسائله . وإننا كثيراً ما ننسى أنه لولا المادة التى خلقها أفلاطون فى محاوراته السقراطية لما عرفنا شيئاً ألبتة تتحدث به عن الحياة الفكرية لفترة الأعوام الستين أو نحوها ، منذ صد جيش

إكزركسيس Xerxes إلى صلح نيقية Nicias وهو أمجد أيام التاريخ الأثينى القديم وأوفرها ثراء[1]. والمؤرخون فى واقع الأمر يستمدون معلوماتهم من هذه المحاورات عادة ليرسموا صورتهم عن الحركات الفكرية فى هذا العهد ، ولكنهم يفقدون حقهم فى أن يفعلوا ذلك لو كان من الممكن اتهام أفلاطون بأنه يعبث بالحقائق التاريخية دون تحرز كما يتهم بذلك كثيراً فيما يرويه عن سقراط[2]. وإن نظرية يتخذها الناس عن الأساليب الأدبية لأفلاطون ثم يجدون أنفسهم مضطرين إلى تجاهلها، لهى نظرية بعيدة عن الصواب

وإذن فالفرض الذى سيقوم عليه حديثنا المقبل عن سقراط هو أن الصورة التى يرسمها أفلاطون لأستاذه صورة دقيقة فى صميمها ، وأن المعلومات التى يمدنا بها عنه قد قصد بها أن تؤخذ على أنها حقيقة تاريخية. وليس من شأن هذا الفرض أن ينفى بطبيعة الحال أن يكون سقراط قد أضفت عليه الهالات فى ذهن أفلاطون ، نتيجة تأثره بأنه مات شهيداً، ولكن يلزم عن هذا الفرض أن مثل هذا الإضفاء إنما يكون لا شعوريا ، وأنه لم يكن ثمة قصد لإخفاء الحقيقة فى المحاورات . ونقول مرة أخرى إنه لا يترتب على هذا الفرض أن كل مايحدثنا به أفلاطون لا بد أن يكون حقيقة تاريخية . فحين يصف سقراط — وكثيراً ما يفعل — فى الصورة التى كان عليها فى أيام صباه هو (أى أفلاطون) (كما فى محاورة المأدبة

---

(١) فى كتاب بيرنت الذى طبع بعد وفاته ، والمسمى « الفلسفة الأفلاطونية » إبراز خاص لهذه النقطة (مطبعة جامعة كليفورنيا ١٩٢٨) ص ٥ وما بعدها .

(٢) كل مؤرخ يتحدث عن عصر « السوفسطائيين » يعتمد — فى معظم مايقول — على محاورات أفلاطون مثل بروتاجورا وجورجياس مع أن المؤلف الذى يعتبر سقراط أفلاطون شخصية خيالية ينبغى أن يكون منطقيا مع نفسه فيتخذ نفس النظرة نحو بروتاجوراس أو جورجياس أو تراسماخوس .

symposium) أو قبل مولده بزمن طويل (كما فى محاورة پارمينيدس) فهو يتحدث عن أمور لا يمكن أن يكون له بها خبرة شخصية ، وهو عرضة للخطأ فيها . ولكن ينبغى أن نذكر أن قصته عن سقراط ذاتها تذكر أن أفراداً من أسرته ابتداء من جده الأعلى لوالدته — وهو أقريتياس Critias المذكور فى محاورة طيماوس — إلى عمه شارميدس Charmides وأخويه الأكبرين كانوا جميعاً على درجات متفاوتة من الصلة الوثيقة بسقراط : فهو بذلك فى وضع يمكنه من أن يكون ملماً إلماما غير عادى بالشيء الكثير مما يقع خارج حدود ذاكرته[1] . فإذا كانت النتائج التى تترتب على استخدام هذا الغرض السابق تجيء منسقة بعضها مع بعض ، وإذا وجد أن ثمة دليلا ينهض على صدقها فيما يمس بعض النقط التى يحوم الجدل حولها ، ففى وسعنا — ونحن مطمئنون — أن نعدها بمنجاة من كل شك معقول .

(١) لابد أن زينوفون أيضا كان يعتمد على شهادة رجال أكبر منه سنا فى النقط التى سنجد أنها أكثر مافى كتابه تنويرا للأذهان . ولكنا لانجد من الأسباب ما يحملنا نشعر بالاطمئنان الكامل الى قيمة معلوماته كما نحس نحو أولئك الذى استمد منهم أفلاطون معلوماته . والمرجع الوحيد الذى يذكر اسمه وهو هرموجينيس Hermogenes الأخ غير الشقيق لكالياس الثرى ، لايبدو لنا فى الصورة التى يرسمها له أفلاطون (فى محاورة أقراطيلوس Cratylus) وكذا زينوفون ذاته (فى محاورته المأدبة) رجلا ذا فطنة عميقة . وربما أمكن أن نستنتج أن زينوفون قد رجع أيضاً إلى أنتستانس Antisthenes الذى يكاد يكون من المؤكد أنه أكبر سناً من زينوفون أو أفلاطون . ولكن ليس هناك ما يدل على أن زينوفون كانت لديه فرصة مناسبة للاتصال بأنتستانس حين كان منكبا على كتابة مؤلفاته « السقراطية » وكذلك ليس هناك احتمال بأنه قد اتصل به فعلا . أما الآراء الحديثة التى تقول بامكان أخذ زينوفون شيئا من « كتابات » أنتستانس فهى بطبيعة الحال مجرد آراء .

الفصل الثانى

المراحل الأولى من حياة سقراط

لم يكن التسجيل الرسمى للمواليد معروفا فى أثينا ، ولذلك فليس لدينا سجل رسمى مباشر نعرف منه تاريخ ميلاد سقراط بن صوفرونيكوس Sophronicus وفيناريتى Phaenarete ، من القبيلة الانطاكية ، ومن قرية ألوبيس Alopcce ومع ذلك فإننا نستطيع بطريقة غير مباشرة أن نحدد تاريخ ميلاده فى أضيق نطاق زمنى، فقد كان هناك دون شك تسجيل رسمى لمحاكمته وإدانته . اللتين حدثتا فى ربيع سنة ٣٩٩ ق م (عام لاخس). وقد حدثنا أفلاطون أن سقراط يوم محاكمته كان فى السبعين من عمره أو أكبر قليلا[1] ومن ثم فنحن أقرب ما نكون إلى الصواب إذا افترضنا أنه ولد فى عام ٤٧٠ ، بعد مرور تسع سنوات فقط على النصر الحاسم الذى صد الجيش الفارسى فى بلاتيا Plataea وعلى ذلك فإنه حين ولد سقراط كان بركليز ما يزال شابا صغيرا ، وكان سوفوكليس ويوربيديس Euripides صبيين ، ، وكان أيسكيلوس Aeschylus قد ألف مسرحيته العظيمة ذات الموضوع الوطنى التى تسمى « الفرس » منذ ما يقرب من سنتين بتكليف من بركليز . وربما كان الفيلسوف فى صباه قد حضر تمثيل رواية أجاممنون Agamemnon ، كما شهد كل مآسى سوفوكليس ويوربيدس العظيمة . وكل المبانى والأعمال الفنية الرائعة التى كانت أثينا غنية بها فى عهد بركليز ، والأسوار الهائلة التى كانت تصل المدينة بميناء بيرامومن ،

---

(١) محاورة الد ع ١٧ د وتختلف النسخ هنا مابين (سبعين) و (مافوق السبعين) وفى « كريتون » (٥٢ هـ ٣) يجرى القول على لسان سقراط بأنه فى (السبعين) من عمره .

ومعبد العـــذراء (البارثنون Parthenon) وتماثيل فيدياس Phidias ورسوم الحائط التى كان يرسمها بوليجنوتوس Polygnotus . كل هذه قد بدأ العمل فيها وتم تحت بصره . ولم تكن قد مرت عند مولده عشر سنوات على تأسيس حلف ديلوس Delas الذى كان نواة الإمبراطورية الأثينية البحرية . ولا بد أنه كان قد بلغ من السن ما يمكنه من تتبع الأحداث من حوله حين وضعت أسس ديمقراطية بركليز بإبعاد كيمون ابن ميلتيادس Cimon son of Militiades غريم بركليز (عام ٤٦١ ق . م) وتقرير نظام الضرائب العامة من أجل إقامة محاكم ديمقراطية يحكم فيها المحلفون . وكان قد بلغ الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين حين توصلت أثينا وإسبرطه إلى إقامة « سلم الثلاثين عاما » الذى ترك أثينا — مقابل التنازل عن مطامعها فى التوسع البرى — حرة فى بسط سلطانها على بحر إيجه ، فأصبحت بذلك أول قوة بحرية فى العالم . وكان على وشك أن يبلغ الأربعين حين نشبت الحرب الطويلة التى أدت إلى تحطيم عظمة أثينا . ومن المهم أن نتذكر هذه الحقائق لسبب غاية فى البساطة ، فإن صورة سقراط التى سيطرت على خيال الأجيال التى تلت كلها هى بلاشك تلك المأخوذة عن أفلاطون فى محاوراته التى تتناول محاكمته ووفاته فى شيخوخته ، كما أن الصورة التى نتخيلها كلنا عندما نفكر فى جونسون هى تلك التى رسمها له بوزويل ، الذى لم يكن قد رآه حتى قارب الرابعة والخمسين ، وخلف وراءه صراعات عمر بأكمله . ولن نستطيع أن نبدأ — بمجرد بدء — فى فهم سقراط من الوجهة التاريخية

حتى يقر فى أذهاننا أنه قد أنفق صباه وشبابه الأول فى مجتمع ، تفصل بينه وبين ذلك الذى نشأ فيه أفلاطون وزينوفون ، نفس الهوة التى تفصل ما بين أوربا قبل الحرب وأوربا بعد الحرب .

ولسنا نعلم الكثير عن والدى سقراط . ويحدثنا أفلاطون فى كتاب « لاخس Laches »[1] أن صوفرونيكوس كانت تربطه صلات الود الوثيق بأسرة أرستيدس « العادل » Aristides التى كانت تقطن نفس قريته ، ويشير إلى أنه كان له بعض القدر فى قريته وفى « كريتون »[2] إشارة إلى أنه كان شديد الحرص على أن يتيح لولده التعليم الأولى السائد يومئذ فى التربية الرياضية ، والموسيقى . وكان لفيناريتى — ويدل اسمها على أنها كانت من أسرة عريقة — ابن يسمى بتروكليز Patrocles من زوج آخر[3] ويحدثنا أفلاطون فى محاورة ثياتيتوس[4] أنها كانت ذات براعة هائلة فى فن التوليد (وقد اعتبرت هذه العبارة فى وقت من الأوقات لونا من الدعابة ، ولكنها تكون خاوية من الدلالة حين تكون مجرد خيال عار عن الصحة . ولكن لا ينبغى بطبيعة الحال أن نخطىء فنعتقد أنها كانت قابلة محترفة ، فى وقت لم تكن هذه الحرفة قد عرفت بعد)[5] وتقول الرواية التى

---

(١) ١٨٠ د (٢) ٥٠ د

(٣) أفلاطون أوثيديموس Eutydemus ٢٩٧هـ (٤) ١٤٩ ا

(٥) وجهة نظر أفلاطون أن سقراط يقارن بأسلوب الداعبة — بين الخدمات التى يؤديها لأصدقائه الصغار بمساعدتهم فى أن يخلصوا أنفسهم وبين الخدمات التى كانت تؤديها والدته ، ومما قد يدل على أن سقراط كان يقيم هذه المقارنة فعلا ، أن أرستوفان فى مسرحية « السحاب » — وهى مسرحية صدرت حين كان أفلاطون لم يزل رضيعا — قد أورد نكتة عن « إجهاض فكرة ما » (السحاب ، ١٣٧) وليس لهذا من معنى إلا إذا كانت مسخرة لطريقة فى التعبير يفهم الجمهور أنها من خصائص سقراط .

وصلتنا فى عصر الإسكندرية ، والتى ما تزال تردد بصفة عامة على أنها حقيقة ، أن صوفرونيكوس كان من أرباب الحرف — صانع تماثيل أو ناحت أحجار — ونعرف من بوزانياس Pausanias [1] وديوجين لارتيوس Diogenes Laertius [2] أن طائفة من تماثيل الآلهة المقامة فى الأكروبول قد نسبت إلى سقراط ومهما يكن من أمر فإن ذلك يبدو بعيد الاحتمال جدا ، إذ يبدو أن علماء الآثار متفقون على أن هذه التماثيل التى وصفها بوزانياس لابد أن تكون من صنع نحات سابق على هذا العصر (وقد كان اسم سقراط متداولا بين الإغريق) . وأقدم إشارة بين أيدينا اليوم إلى سقراط بوصفه ابن رجل يعمل فى نحت التماثيل ، هى الإشارة الواردة فى أبيات من الشعر الهجائى كتبها تيمون الفيليوسى Timon of Philius من شعراء القرن الثالث ، ويبدو كما قال بيرنت أنه لا أفلاطون ولا زينوفون قد سمعا قط هذه القصة . ولو أن أفلاطون كان يعرفها لما كان من المحتمل أن يُجرى على لسان سقراط ما قاله فى محاورة « الدفاع » من أنه حين أخذ يتلفت حوله ليبحث عن رجال أحكم منه ، التفت أولا إلى رجال السياسة ، ثم إلى الشعراء ، ولم يجر البحث بين أصحاب الحرف إلا فى نهاية الأمر . وأعتقد مع بيرنت أن هذه العبارة ربما نجمت عن فهم خاطىء لإشارة مازحة من سقراط فى مؤلفات أفلاطون [3]

(١) ١ ؛ ٢٢ ؛ ٨ (٢) ٢ ؛ ١٩

(٣) أفلاطون فى محاورة أوطيفرون (١٠ حـ) . ويبدو من المؤكد أن هذه هى الطريقة التى فهم بها مؤلف الكيبيادس الصلة التى تربط سقراط بديدالوس . ولا يكفى للاعتراض على ذلك أننا لا نملك دليلا آخر على عشيرة ديدالَيداى Daedalidae .

أشار فيها إلى ديدالوس Daedalus — الذى زعمت الأساطير أنه كان ينحت تماثيل من الخشب — على أنه من أسلافه ، وأن المعنى الحقيق لهذه الدعاية هو أن الأسرة ذات نسب عريق يرجع إلى ديدالوس ، على نحو ما كان بيت فيليديا Philaidae الذى ينتمى إليه بيزيسقراتوس Pisistratus ألكيبيادس Alcibiades يرجعون نسبهم إلى آخوس Aeacus وعلى أية حال فإنه يبدو من الواضح — إذا وثقنا بكلام أفلاطون — أن سقراط لم يتخذ حرفة قط وإنما هو يُصَوَّر لنا على أنه كان دائما رخى البال يشغل وقته على هواه . وأنه ائتلف منذ البدء بأبرز رجالات أثينا وهم رهط بركليز وكيمون .

وسواء كان صوفرونيكوس مَثَّالاً أو لم يكن فلا ينبغى أن نخطىء فنظن أن سقراط كان ينتمى إلى طبقة فقيرة كالطبقة الكادحة فى عصرنا الحديث (البروليتاريا) . نعم لقد عاش فى مسغبة شديدة فى شيخوخته — بعد حرب مدمرة أدت إلى « أزمة مالية » شاملة ، ولكن أفلاطون ينص على أن هذا الفقر كان يرجع بصفة مباشرة إلى استغراقه فى أداء « رسالة » لم تكن تترك له وقتا للعناية بشئونه الخاصة(١) . ومهما يكن من أمر فليس من الممكن أن نعتبره حتى السادسة والأربعين من عمره منتميا إلى الطبقات الدنيا من المواطنين الأثينيين ، إذ كان ما يزاله فى سنة ٤٢٤ يعمل فى خدمة الجيش مقاتلا من المشاة كامل العدة ، ولابد أنه كان يمنح بصفة رسمية الدخل الذى يؤهله لهذه المرتبة . وتواتر

---

(١) الدفاع (٢٣ ١) .

الإشارة إلى فقره فى المسرحيات الساخرة التى أنتجها الشعراء فى السنة التالية ثم — وإن كانت غير قاطعة — على أن فقره كان يومئذ حديث الوقوع . ومن ثم يبدو أن هناك ما يحملنا على تصديق عبارة الباحث ديمتريوس الفاليرومى[1] Demetrius of Phalerum الذى عاش فى القرن الثالث من أن سقراط قد ورث بجانب المنزل الذى كان يسكنه رأس مال متواضع (يقدر بسبعين مينيا minae) كان يستثمره له صديقه أقريطون .

وقد كان سقراط منذ أيامه الأولى شخصا يمكن أن نصفه «بالشذوذ» فى الناحية الجثمانية والعقلية كليهما . فقد أفاض كل من أفلاطون وزينوفون فى الحديث عن قوته الجسمية الفائقة وقدرته على الاحتمال ، وهى تفسر إلى حدما ذيوع صيته مقاتلا وىما يشهد كذلك بقوته البدنية أنه حين مات فى سن السبعين ترك طفلين صغيرين ، يبدو أن أحدهما كان رضيعاً فى حضن أمه[2] ويؤكد الرواة شدة زهده وعزوفه عن الطعام والشراب ، وكذلك قدرته فى بعض المناسبات على أن يسرف فى الشراب دون أن تفقده الكأس وعيه . وقد كان فى فتوته يلبس ثوباً مفرداً شتاءً وصيفا ، ويسير حافى القدمين حتى فى معارك الشتاء القارس — كما يروى

(١) بلوتارك — أرستيدس Aristides, 1

(٢) نجد على الأقل فى محاورة فيدون (٦٠ ا) أنه حين سمح لأصدقاء سقراط بزيارته فى السجن فى آخر أيام حياته وجدوا امرأته زانثبي Xanthippe قد سبقتهم إليه « ومعها الطفل » ومن المرجح أن تكون زانثبي قد أمضت الليلة هناك ، وأنها جاءت بالطفل معها لأنه أصغر من أن يترك فى المنزل .

عنه أفلاطون[1] ولكنه كان أبعد شيء عن الوسامة أو حسن التكوين. وقد شبه أرستوفان مشيته بحجلة الطيور المائية. وكان يسخر من العادة الملازمة له إذ يدور بعينيه فيما أمامه ويشير أفلاطون وزينوفون كلاهما إلى اتساع طاقتي أنفه مع فطس شديد فيه، كما يشير إلى شكل عينيه المتميز الذي قد يكون ناشئا إما من جحوظهما وإما من اتساع ما بينهما[2]. ويقول الكبيادس في محاورة أفلاطون «المأدبة» إنه كان يشبه المخلوقات الخرافية المنحوتة.

ومن الناحية العقلية كذلك كان سقراط منفرداً من وجوه عدة. وكانت أعجب خصيصة له في هذا الباب هي «الهاتف» الخفي أو «العلامة الخارقة للطبيعة»[3] التي كانت ترعاه منذ طفولته ويروي أفلاطون — الذي لا يأخذ المسأله مأخذ الجد — أن هذه «العلامة» كانت تظهر بصورة متقطعة وغالبا ما تكون في مناسبات غاية في التفاهة، وكانت دائماً تأخذ صورة تحذير مفاجيء ينهاه عن عمل معين[4] ودلت التجارب

(١) انظر وصف شدته وصلابته في الخنادق المغطاة بالثلوج أمام بوتيديا في المأدبة (٢٢٠ ا — ب) وقد وصفه أميبسياس Amipsias في كونوس Connus (٤٢٣ ق م) بقوله (إنه ولد ليحتقر الإسكافي) أما وصف أرستوفان له ففي مسرحية السحاب ص ٣٦٢ وما بعدها.

(٢) قارن بين رواية أفلاطون في (المأدبة ٢١٥ ب) وما بعدها، ورواية زينوفون في (المأدبة ٥).

(٣) هذا ما يسميه الكتاب المؤرخون (الروح الحارس) لسقراط، ولا يتحدث أفلاطون عنها بهذه الصفة قط وإنما يسميها ببساطة (الشيء الخارق للطبيعة) انظر الوصف التفصيلي لها في كلام سقراط نفسه أمام قضاته (الدفاع ٢١ د).

(٤) في الجمهورية (٤٩٦ ح) يتحدث سقراط عن هذه (العلامة) على أنها خصيصة شخصية ربما كانت الوحيدة من نوعها.

على أن إهمال تحذيراتها يؤدى عادة إلى نتائج سيئة . أما زينوفون الذى كان فى طبيعته أثارة من الإيمان بالخرافة ، فإنه يبدى اهتماما أكبر بهذه الظاهرة الشاذة ، إذ يعالج أمرها على أنها نوع من المرافقة الخاصة ، ويصر على أنها كانت توحى له كذلك بتوجيهات إيجابية خاصة بشئون سقراط وأصدقائه ، لم يكن من المأمون إهمالها وتشتمل محاورة تياجسTheages التى ترجع إلى القرن الرابع ، والتى نسبت خطأ إلى أفلاطون ، عدداً من النوادر العجيبة عن أشخاص أهملوا تعليمات هذه «العلامة»وكانت النتائج كوارث فظيعة . أما رواية أفلاطون فى هذا الشأن فربما كانت أقرب الروايات إلى الدقة إذ هى أقلها جنوحا إلى المبالغة المثيرة للعواطف .

وواضح من جميع الروايات أن «العلامة» كانت ابعد شىء فى طبيعتها عن «الضمير» فلا علاقة لها إطلاقا بما هو خطأ وما هو صواب ، ولا يلجأ إليها — فى جميع الروايات المروية عنها — فى أمور تتعلق بالسلوك الخلقى ، وإنما غاية ما تصل إليه أن تكون نوعاً من النذير «الخفى» بسوء الطالع . وأهميتها الرئيسية بالنسبة إلينا أنهما واحدة من جملة إشارات تدلنا على أن سقراط كان له بالفعل مزاج «أصحاب الرؤى» وإن كان — على خلاف معظم هذه الطائفة من الناس — قد أخفى هذا الجانب من طبيعته على نحو ما أخفى القديس بولس موهبته فى « التحدث بمختلف اللغات » . ومن العلامات الأخرى لهذا المزاج الذى يجنح لشهود الرؤى ، والذى أفاض أفلاطون فى الحديث عنه ، تعرّضه لنوبات مفاجئة من الاستغراق والجنوح إلى التفكير البحت تصل به أحيانا إلى حد الغيبوبة الحقيقية

أو النشوة الروحية . وكانت هذه النوبات فيما يظهر تستغرق فى العادة فترة قصيرة ، ولكن أفلاطون يسجل لنا نوبة منها أدركت الفيلسوف وهو يحارب أمام بوتيديا ، واستمرت نهارا كاملا وليلة (١) . والحقائق التى يذكرها أفلاطون من هذا النوع تلقى ضوءاً على النزعة الصوفية القوية التى تتميز بها محاورات سقراط الأفلاطونية ، ويفسر ذلك عادة بأنه دليل على وجود نزعة صوفية لدى أفلاطون نفسه ، ولكننا إذا نظرنا إلى إقصاء هذه النغمة بشكل واضح فى المحاورات الأخيرة التى لم يكن سقراط فيها شخصية بارزة ، بدا أنه من الأصوب أن نستنتج أن النزعة الصوفية التى تظهر فى مؤلفات مثل « المأدبة » و « فيدروس » هى لأول وهلة من خصائص سقراط — وسوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد .

ويحدثنا أفلاطون أن الذى حد من هذه النزعة ومنعها من أن تنقلب عند سقراط إلى إيمان بالخرافة ، لم يكن « إصراره العنيد على تحكيم العقل » فحسب — وهى الخاصية التى يشترك فيها مع صمويل جونسون Samuel Johnson — ولكن كذلك سخريته اللاذعة التى يشابه فيها أيضاً « حكيم » شارع الصحافة بلندن . وهذه النزعة الساخرة هى التى يلقبها أعداؤه فى محاورات أفلاطون « بتهكمه المعتاد » . والتهكم بهذا المعنى البدائى للفظ يعنى تلك الخاصية الكريهة للرجل الذى يسعى إلى التهرب من تبعاته

(١) تروى محاورة (المأدبة) أن سقراط أصيب (بنوبة ذهول) قصيرة من هذا النوع وهو فى طريقه إلى مأدبة غذاء (المأدبة ١٧٤د) وفى نفس المحاورة (٢٢٠ حـ — د) يصف السكيبادس المشهد الذى وقع أمام بوتيديا ، وقد كان هو من شهود الحادث .

بأن يحط من قيمة مواهبه بطريقة مصطنعة(١) . ومحاورات أفلاطون تصور لنا نقاد سقراط المغرضين يتهمونه بهذا التصنع الكاذب لأنه دائماً يضع نفسه موضع الباحث المتواضع من الحقيقة ، يريد أن يجلس عند اقدام أولئك الذين أوتوا من المعرفة أكثر منه ، بينما الواضح هو أنه أرجحهم عقلا . ومن ثم يؤخذ إنكاره لمواهبه على أنه معاذير كاذبة يبرر بها قصر نفسه على مهمة هينة هي عرض نقائص الآخرين. أما أفلاطون فيعتقد بلاشك أن اعترافات سقراط جادة إلى أبعد حد . فهو يصف نفسه بالجهل لا لشيء سوى أنه لا يرى قيمة كبيرة لتلك الحكمة التي يفاخر بها بعض معاصريه إن لديه المعيار المستوى الذى ينبغى أن تكون عليه المعرفة الحقيقية ، ومن ثم يدرك إلى أى مدى يقصر هو والآخرون كلهم عن بلوغ هذا المستوى الرفيع . ومن هنا كان هو وحده الذى يرى نفسه والآخرين جميعاً فى مواضعهم الحقيقية ، فتثير كامن سخريته المقارنة بين ما يزعمه الناس لأنفسهم وما يقدرون عليه بالفعل.

ويبدو أن استخدام المتصوفة فى كل زمان ومكان للغة الرمزية المستمدة من الانفعال الجنسى للتعبير عن معان صوفية ، يشير إلى صلة حقيقية بين المزاج الصوفى والمزاج الشهوانى . ومن الواضح أن سقراط

---

(١) الثعلب فى لغة الأساطير اليونانية هو الذى يتمثل فيه الدهاء فى عالم الحيوان . أما (الإنسان الساخر) فى كتاب (الأخلاق) لأرسطو فهو الرجل الذى يتخذ كلامه صورة مؤذية بتظاهره بالتواضع الكاذب ، والحط من قدر نفسه وكل ما يتصل بشخصه على غير إخلاص منه فى ذلك . ويعقد أرسطو مقارنة بين موقف هذا النمط من الناس وموقف الرجل المغرور بنفسه وبين رجل آخر دأبه الصراحة والصدق دون تكلف ودون (شعور بالذات) .

لم يكن استثناء من هذه القاعدة . وقد نتج عن العادات التى كانت سائدة فى الأوساط العليا فى عصره ، أن التشبيهات التى كان يستخدمها قد استمدت العلاقة الغرامية بين أشخاص من جنس واحد (الغزل بالمذكر) وأبرز الأمثلة على ذلك نجدها فى كتابات أفلاطون عن العلاقة الشهيرة بين سقراط وبين ألكبيادس الألمعى الذى ينتمى لنفس قريته ، والذى كان يصغر سقراط بما يقرب من خمسة عشر إلى عشرين عاماً[1]. فهذه العلاقة التى لابد أنها بدأت حين كان ألكبيادس ما يزال طفلا وسقراط قد تجاوز الثلاثين ، يعبر عنها أفلاطون بلغة العاطفة الغرامية ويؤيد أفلاطون فى ذلك عبارة ما تزال باقيـــة بين أيدينا وضعها أسكينس على لسان سقراط فى محاورته المسماة «ألكبيادس»[2] وطبيعى أن يلتزم زينوفون الصمت فى أمر علاقة سقراط بألكبيادس ، إذ كانت هذه المسألة — كما سنرى فيما بعد — إحدى التهم التى أثيرت ضده فى المحاكمة . ولكنه يتفق مع أفلاطون فى القول بأن سقراط كان يستخدم عبارات مجازية وهو يتحدث عن نفسه ، إذ يصف نفسه مازحاً بأنه طيلة حياته ضحية لإيروس (الشهوة) وأستاذ فى « فن الحب »[3] ويوضح كل من أفلاطون وزينوفون أن عباراته هذا على سبيل الدعابة ، وينبغى أن نكون على حذر

(١) انظر بصفة خاصة محاورة (برتاجوراس ٤٨١ د) وأهم من ذلك جميعه تلك القصة الموضوعة على لسان الكبيادس نفسه فى (المأدبة) .

(٢) انظر العبارة الواردة فى الكبيادس تأليف أسكينس (شذرة ٤ ، كراوس) حيث يجرى على لسان سقراط مقارنة بين حبه لألكبيادس والعاطفة المشبوبة بحب الخمر

(٣) بغض النظر عن إشارات أفلاطون المتكررة فى هذا الصدد ، انظر إشارات زينون الهزلية التى تؤدى إلى نفس المعنى فى (المأدبة ٨ ؛ ٢)و (الذكريات ٣ ؛ ١١ ؛ ١٦) وما بعدها

من إساءة فهمنا . وإن طهارة سقراط الخلقية المطلقة لهى الافتراض الذى تقوم عليه قصة التجربة الشريرة التى تجرى على لسان ألكبيادس فى محاورة « المأدبة » ، كما أن كل الهدف المقصود من المحاورتين الغراميتين الكبيرتين اللتين ألفهما أفلاطون ، وهما « المأدبة » و « فيدروس » ، وهو تخليص « الحب الصوفى » من أوضار الحب الحسى أو الشهوانى[1] .

ينبغى إذن أن نتصور سقراط فى أيام شبابه على أنه عبقرية أصلية ، بل شخصية جمعت بصورة فذة بين المحب المتوقد العاطفة والصوفى المتدين، والمفكر المشغوف بتحكيم العقل فى كل شىء ، والساخر الفكه . وعلينا — بقدر ما نستطيع أن نعتمد على المصادر المتبقية بين أيدينا — أن نرسم صورة كاملة عن أثر الحياة العقلية فى عصر بركليز على مثل هذه الشخصية وإنها لمهمة شاقة عسيرة ، ولكنى أعتقد أن فى مقدورنا القيام بها إذا وثقنا بما يعطينا . أفلاطون من دلائل ، وفسرنا الشواهد الأخرى فى ضوئها .

والواقع أنه ربما كان علينا — فى نقطة معينة — أن نحسب حساب عامل تأثر به سقراط من جيل سابق لجيله ذلك أن سقراط فى محاورات

(١) كان أمراً هاما فى هذا السياق أن نذكر أن (إفساد النشء) الذى اتهم به سقراط لم يكن له صلة بهذا اللون من العلاقة مع الصغار . ومن المؤكد أن تهم الشذوذ الجنسى الشائن لو كانت حقيقة لكانت سلاحا فعالا فى أيدى الذين أقاموا عليه الدعوى . كما أنه من المؤكد أنهم لم يستخدموا مثل هذا الاتهام . وأما الاتهام الحقيقى — كما سنرى بعد — فقد كان (تثقيف) الكبيادس وأقريتياس ومسئوليات — من ثم — عن اعتدائهما على الديمقراطية . وإنى لأذكر هذه النقطة الواضحة لأنه قد أسىء فهمها إساءة بالغة منذ فترة قريبة فى مقال فى مجلة (QuarterlyReview)

أفلاطون لايفتأ يشير إلى عقائد الديانة الأورفية Orphic بوصفها الدعامة التي يقوم عليها اعتقاده في خلود الروح وأهمية الحياة الآخرة. ومن الواضح جداً أن تفاصيل الصور الخيالية التي يقصها عن الجنة والنار في «جورجياس» و «فيدون» و «الجمهورية» مستمدة من العقيدة الأورفية. وقد كان أفلاطون أيضا — كما يتبين من إشارته في محاورة القوانين — يعتبر «أقوال القدماء» — التي تعني العقائد الأورفية بوضوح — أساطير تشتمل على قبس من الحقيقة الدينية الخالدة. ولكننا نرى كذلك من هجومه العنيف على الأساطير والدين المتحللين من الأخلاق في القسم الثاني من «الجمهورية» — وهو هجوم موجه إلى أرفيوس أكثر منه إلى هوميروس — أن أفلاطون يرى أنه في وقت مولده [1] كانت الديانة الأورفية قد انحطت إلى تجارة مشينة في بيع الصفح والغفران فليس من المحتمل إذن أن تكون الأورفية الموجودة يومئذ قد أوحت إلى أفلاطون أو سقراط باحترامها، ومهما يكن من أمر فإن قصائد بندار العظيمة في مدح الديانة الأورفيـــة يرجع تاريخها إلى السنوات التي سبقت مولد سقراط مباشرة، وهذا يوحي بأنه من المحتمل أن يكون سقراط قد اعتنق

(١) ينبغي أن نتخيل أن المحادثة التي يقوم بوصفها كتاب الجمهورية قد حدثت — على أكثر تقدير — في أيام الطفولة الأولى لأفلاطون، إن لم يكن قبل ذلك، حيث إن أخاه أديمانتوس Adimantus الذي يظهر في المحاورة شابا يافعاً، كان في سنة ٣٩٩ قد بلغ من العمر ما يجعله يأخذ منه مكان الوالد، كما نرى في مكان (الدفاع) (٣٤ ا) حيث يذكره سقراط بوصفه قريبا من أقرباء أفلاطون يستطيع أن يدلي بشهادة يوثق بصحتها بشأن الأثر الذي خلقته صحبة سقراط في نفس أفلاطون.

الديانة الأورفية حقاف طفولته(١)، وظل متأثراً بها طيلة حياته. وهو قول لو صدق لأمكن أن يفسر لنا الصلة التى سنجدها بين سقراط والفيثاغوريين فى طيبة وفيليوس ، كما تفسر لهفة أفلاطون الواضحة فى محاورة « أوطيفرون » على عرض الفرق بين إيمان سقراط وإيمان أوطيفرون المضحك القائم على التعصب المذهبى ، كما أنها تفسر أيضا وجود محاورة من تأليف أسكينس تسمى تيلوجيس Telauges جمع فيها بين سقراط وبين أحد المؤمنين بعالم آخر من ذوى الأخلاق المسفة غاية الإسفاف وجعل سقراط بطبيعة الحال ينتقد مسلكه المعوج .

ولاشك فى أن روح أثينا بركليز هى المصدر الذى استمد منه سقراط ذلك الإحساس الذى صاحبه طول حياته بأهمية الطاعة الخالصة للسلطة الشرعية ، واحترامه للدستور بالغا ما بلغ من الصرامة والشدة ، وهو الذى أدى فيما بعد إلى معارضة الخروج على الدستور ، سواء من جانب الديمقراطية الغاضبة أو من جانب محطمى الديمقراطية ، معرضا نفسه لخطر بالغ ، وأدى به فى النهاية إلى الإذعان لمحاكمة كان من رأى الذين قدموه إليها أنه ينبغى أن يتجنبها ، وإلى حكم بالإعدام كان من الهين عليه أن ينجو بنفسه منه ، كل ذلك دفاعا منه عن حق الدولة فى تقويم سلوك مواطنيها لقد كانت حياته كلها مثلا بارزاً لذلك اللون من احترام

(١) يجب أن نتذكر أن الديانة الأورفية لم تكن ديانة لجماعة سياسية ، فقد كانت — كالعقائد الحديثة — تجتذب أنصارها عن طريق اندراج هؤلاء فى طقوسها من تلقاء أنفسهم وأنها كانت (دونية) . وقد مزج الفيثاغوريون الأوائل بين علومهم وبين ديانة مشابهة قائمة على عقيدة خلود الروح .

القانون ، الذى درجنا على الاعتقاد بأنه سمة رومانية لا إغريقية ، ومع ذلك فهو احترام برىء — بصورة فريدة — من الرذيلة الرومانية المحيطة به ، التى تعظم نصوص القانون أكثر من روحه .

ونحتاج أن نقول أكثر من ذلك عن الجو الفكرى فى المجتمع الذى أمضى فيه سقراط صباه وشبابه الباكر ، وتأثير هذا الجو عليه والحقيقة الهامة التى ينبغى أن نجعل بالنسا إليها هى أن ما اكتسبته أثينا من أهمية سياسية وتجارية أيام كيمون وبركليز جعلها — مثل لندن فى وقتنا الحاضر — عاصمة عظيمة ، وموئلا يقصده مفكرو العالم بعد عصر الإسكندر ، فقد أصبحت مركزاً لتنقيح الأفكار من كل نوع ، وهذا هو السبب الذى يسر لأفلاطون فى القرن التالى أن ينشىء فى أثينا أكاديمية أصبحت مركزاً ، دولياً ، للتعليم العالى ، وهو السبب فى أننا حين نسمع عن علوم الإغريق القدماء وفلسفتهم نفكر على الفور فى مدارس أثينا على الرغم من أن الفلسفة والعلم فى الواقع قد نشآ أول ما نشآ خارج أثينا ، وكانا بعيدين كل البعد عن الطابع الأثينى إلى حد أننا نجد أن سقراط وأفلاطون هما الفيلسوفان الأثينيان الوحيدان اللذان لهما اعتبار .

لقد كانت الفلسفة والعلم — وإلى ذلك العهد لم يكن قد تميز أحدهما عن الآخر — من ابتداع العقل المتشوق المعرفة ، الذى اتسم به إغريق المدن الأيونية الكبرى على ساحل آسيا الصغرى الذين أخذوا على عاتقهم منذ حوالى سنة ٦٠٠ ق . م فصاعدا ، أن ينشئوا نظرية مترابطة عن العالم من حولهم قائمة على أساس التفكير العقلى . وفى خلال جيلين اثنين

من بدء الحركة العقلية ، انتقل هـذا الدافع إلى الجماعات الإغريقية فى جنوب إيطاليا على يد رجل من أعظم العباقرة الأيونيين ، هو فيثاغورس المؤسس الحقيقى لعلم الرياضيات ، ونشأ عن ذلك أن ظلت أهمية الغرب تتزايد باستمرار وسرعة عن أهمية الشرق بالنسبة لنمو الفكر الأوربى فى المستقبل (يقصد غرب اليونان وشرقها) . وقد كان أول ما أثار اهتمام العلماء الأيونيين الأوائل هو العالم الأعلى فوقنا ، أى تلك الأجرام السماوية التى تبدو متحركة بطريقة معقـدة محيرة ، ولـكنها فى الوقت ذاته منظمة بقانون موحـد يتمنى المرء لو أنه أدرك سره . وقد أدى ظهور الطب اليونانى يومئذ إلى إحلال التأمل فى علم الحياة مكان الصدارة فى « دنيـا العلوم » بدلا من التأملات الفلـكية ، بينما كانت الرياضيات قد أحرزت درجة كبيرة من التقدم وأوحت إلى الفيثاغوريين بأن علم الأعداد ذاته ربما كان مفتاح أسرار الـكون[1] وفى الوقت الذى كان فيـه سقراط يشارف عامه العشرين ، كانت النظريات الشرقية والغربية عن الـكون تتبلور فى صورتين متعارضتين . وكانت « أبرز نقط الخلاف وأوضحها

(١) يجد القارئ الإنجليزى أجـمل عرض عام لحركة النمو الفـكرى كله إلى قرب سنة ٤٥٠ ق.م . فى كـتاب بيرنت « الفلسفة الإغريقية » الجزء الأول ص ١ — ١٠١ . ويمكن الحصول على تفصيلات أوفى فى كـتاب آخر المؤلف بعنوان « المراحل الأولى للفلسفة الإغريقية » (الطبعـة الثالثة سـنة ١٩٢٠) أو فى كـتاب « ب تاذ ى » المسمى « تاريخ العلم الهيلينى » (الطبعة الثانية سنة ١٩٣٠) . انظر كذلك كـتاب « ج . لوريا » بعنوان « تاريخ العلوم الرياضية فى العصر القدم بعد الإسكندر (باريس سنة ١٩٢٩) إذا أردت عرضاً مختصراً فى الموضوع . ويبدو واضحاً أنه ما كاد سقراط يبلغ سن الشباب حتى كان علماء الهندسة الإغريق على بينة من المـادة العلمية التى جاءت فى كـتاب إقليدس أجزاء ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦

هى الخلاف على شكل الأرض ومكانها فى النسق الذى ترسمه كل من النظريتين الفلسفيتين . وكانت الفكرة العامة الشرقية أن هناك مادة واحدة يتكون منها كل شىء بما فى ذلك عقولنا ، تلك المادة هى « الهواء » وكان المقصود بالهواء الضباب أو البخار . فكل شىء « ضباب أو بخار » ويعزى الاختلاف بين الأشياء إلى سبب بسيط هو اختلاف درجة التركيز والتخلخل فى هذه المادة . حتى « الروح » البشرية هواء ، إذ أنها فى الواقع ذلك الجو المحيط بنا ، الذى نجذبه إلى داخل أجسامنا بالتنفس ، وهذا هو السبب فى أننا لا نتمتع بالحياة والإحساس إلا ما دمنا نتنفس ، والسبب فى أننا « نلفظ النفس » حين نموت . والأرض — وهى كتلة ضخمة من الهواء شديدة التركز تقع فى منتصف « عالمنا » أو النظام النجمى — عبارة عن قرص عريض يسبح فى الهواء الموجود تحتها كما تسبح ورقة الشجر على سطح الماء . وكما أن هذه النظرية الشرقية كانت قائمة على مبدأ تفسير الكون المادى على أساس عنصر واحد ، فقد كانت النظريات الغربية المعارضة لها تقوم على مبدأ الثنائية أو تعدد عناصر الكون المادى . وأشهر هذه النظريات لدى القارئ العادى اليوم نظرية أنبادوقليس Empedocles مؤسس المدرسة الطبية فى صقلية ، الذى نادى بأن الأشياء فى تركيبها ، أبعد شىء عن أن تكون « هواء » فى حالات مختلفة من التركيز ، فهى جميعاً مكونة من أربعة « أصول » أولية : (وهى العناصر كما سميت فى مرحلة تالية) هى النار وهواء الجو والماء والتراب . وثمة اختلاف عن النظرية الشرقية أبرز من سابقه . ذلك هو نظرية

الفيثاغوريين الذين حاولوا أن يتصوروا الأشياء بطريقة رياضية خالصة، بوصفها أشكالا كثيرة مؤلفة من « وحدات » أو « نقط » تنتظم فى أنماط هندسية خاصة فى « مكان » محيط بها ، لا يسهل تمييزه من الضباب أو الظلمة ، وكان الفيثاغوريون قد استكشفوا كروية الأرض وما يترتب على ذلك من استحالة تصورها سابحة على شيء تستند إليه . وقد رجعوا إلى فكرة أنكسمندر Anaximander البارعة إذ قال فى أول عصر العلم الأيونى — رغم اعتقاده بأن الأرض تشبه الطبلة — إنها ليست قائمة على عمد إطلاقا ، بل تدور فى حركة طليقة فى مركز النظام النجمى كله ، لأنها موضوعة فى مكانها بنظام متوازن دقيق ، ولذلك فليس هناك ما يدفعها إلى أن تميل فى جانب أكثر من ميلها فى جانب آخر . والصدام الحاد الذى وقع بين النظريات الشرقية والغربية على شكل الأرض مثل طيب لحالة التفكير العلمى فى منتصف القرن الخامس . ولقد بلغ من حماسة الإغريق فى البحث العلمى مدى قرن ونصف قرن من الزمان أنه لم يعد هناك شيء ثابت — كما وضع أفلاطون على لسان سقراط فى محاورة فيدون — فيما عدا شيئاً واحداً ، هو أنه إذا كان أحد الفريقين المتعارضين على صواب ، فالآخرون جميعاً لا بد أن يكونوا مخطئين[1] .

ولم تكن هذه الأقوال المتناقضة التى تنادى بها المدارس العلمية المتعارضة هى الشيء الوحيد الذى يبلبل الأفكار ، فقد كان هناك ما هو أشد من ذلك بلبلة للفكر ، وهو النقد الشديد الذى كان يوجهه إليها

(١) ٩٦ أ — ب ، ٩٩ ب — ح

جميعاً الفيلسوفان الإيليانيان . بارمينيدس وتلميذه زينون . فقد بدأ بارمينيدس بتطبيق المبدأ العقلي القائل بأن ما لا يمكن التفكير فيه من غير الوقوع في التناقض لا يمكن أن يصدق . وانتهى إلى أن الحركة والتغير اللذين هما الخاصيتان الرئيسيتان للعالم كما يصفه العلم ، متناقضتان في ذاتهما ، ومن ثم فلا بد أن يكون الموجود حقاً شيئاً « مطلقاً » مفرداً متوحد المظهر غير متغير[1] . وما دامت الطبيعة كما يراها علماء نظام الكون ليست هذا الكيان المطلق بل مسرحاً لحركة وتحول دائمين ، فلا يمكن أن تكون الطبيعة إلا مجرد وهم . أما زينون فقد نقل الحرب إلى قلب معسكر الأعداء حين أخضع مبادئ الفيثاغوريين الرياضية لبحث فاحص ، بدا منه أن التفكير الرياضي ذاته مجموعة من المتناقضات . وفي الحق أنه أدى إلى إعادة تكوين المفاهيم الرياضية الأساسية ، وهي عملية بدأت في عهد أفلاطون ، ولم تكد تنتهي إلا في عصرنا الحاضر[2] . وكان من أثر هذه الحملة على الأسس الأولى للمعرفة العقلية ، والتي كانت في ظاهر الأمر حملة من العسير تفنيدها ، أنها أدت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى يأس شامل وواسع المدى من مجرد إمكان الوصول إلى معرفة العالم الطبيعي وما بلغ سقراط العشرين من عمره حتى كان أبرزُ الرجال

(١) تصور بارمينيدس هذا « المطلق » في سذاجة على أنه كرة مادية صلبة . ولكن هذه مجرد نقطة تاريخية .

(٢) مفارقات « زينون » المشهورة عن « أخيل » و « السهم الطائر » وبقية المتناقضات تنتمي كلها إلى هذا الجدل . وأكمل دراسة أعرفها لأهمية هذه البحوث وتأثيرها هو كتاب هـ . هاس H, Hasse ، هـ . شكولز Scholz المسمى Die Grundlagenkrisis der Grieckischem mathematik المطبوع في برلين سنة ١٩٢٨ .

وأوسعهم علماً ينفرون من اتخاذ الكون المادى موضوعاً للبحث . ويكاد يكون المفكرون من الطبقة الثانية وحدهم هم الذين مضوا « يرقعون » الأفكار القديمة محاولين التأليف بينها . أما رجال الطبقة المبرزة من أمثال بروتاجوراس الأبديرى ، فقد أخذوا يوجهون أفكارهم وجهة جديدة . ففى عصر اتسم بالتقدم السريع فى النواحى الخلقية والسياسية ، أحس الناس بالحاجة إلى مبادئ تدرس دراسة وافية وتصاغ صياغة واضحة ، فى التشريع والسياسة والسلوك الفردى فى الحياة ، لتحل محل الاعتماد على العادات والتقاليد . وهنا بدا أن هناك مجالاً مفتوحاً يمكن أن يؤتى ثماره باستخدام الفكر فى هدف حقيق ، وهذا هو الذى يفسر نشوء مهنة جديدة هى مهنة السوفسطائى أو « المعلم » الذى يتناول أجراً على مهنة التعليم[1] ، إذ وجد طائفة من الناس الذين كان يمكن قبل ذلك بقليل أن يكونوا مكبين على دراسة الطبيعة (Nature) ، حرفة جديدة مجزية فى الترحال من مدينة إلى أخرى يبينون للناس « الفضيلة » أو « الصلاح » أى العلم بالطريقة التى « يدبر الإنسان بها شئونه الخاصة وشئون مدينته على الوجه الأكمل » وهى على وجه التحديد

(١) كانت اللفظة فى ذلك الوقت تعنى ببساطة ما كان الأسلاف فى عهد الملكة آن يفهمون من كلمة wit أى « الفطن » وتشمل أصحاب النظريات فى علم نظام الكون كما تشمل العلماء الإنسانيين ، ولا ينبغى أن نفهم منها أى معنى خلقى ذميم من المعانى التى توحى بها كلمة « سوفسطائى » أو « السفسطة » فى استعمالنا الحديث ، فقد ابتدع إيسوقراط وأفلاطون فيما بينهما هذه المعانى باستخدامهما اللفظة للدلالة على من يدعى الفلسفة زوراً وهو منها براء . وفى أيامهما كان قد انتهى عهد المعلمين الجوالين .

تلك المعرفة التي كان يسعى إليها بشغف زائد كل شاب يتطلع إلى القوة والبروز ومن هذه الحركة بدأت الدراسات الإنسانية الأوربية ، كما بدأت العلوم الطبيعية من تأملات « حكماء » ملطية Miletus فى نظام الكون. وقد كان من شأن السرعة التي قامت بها الديمقراطية الإمبراطورية فى أتيكا فى عهد بركليز أن جعلت أثينا بطبيعة الحال عاصمة دولية يضمن فيها معلم « الصلاح » ، وجود جمهور متعطش لسماعه ، وحصيلة أوفر .

وقد كان الاهتمام القديم بالرياضيات والطبيعة والاهتمام الجديد بالدراسات الإنسانية فى القانون والأخلاق كلاهما ممثلا تمثيلا كاملا فى أثينا فى عهد بركليز . وكان أنكساغورس فى الواقع هو الذى نقل إلى أثينا العلم القديم فى صورته الشرقية ، بما تشتمل عليه من نظرية استواء الأرض ، فى طفولة ذلك السياسى القدير (بركليز) . وتقول الرواية التي يسلم بها كل من أفلاطون وإيسوقراط إن أنكساغورس قد كلف بالقيام على تعليم بركليز نفسه[1] ومن المحتمل أن يكون أنكساغورس قد اضطر إلى ترك أثينا فراراً من حكم صدر عليه بالإعدام بتهمة الإلحاد قبل أن يبلغ سقراط مبلغ الرشد[2] . ولكن علوم نظام الكون الشرقية الطراز كانت

(١) يقول أيسوقراط بوضوح (xu235) إن بركليز تتلمذ على اثنين من المعلمين (السوفسطائيين) هما أنكساغورس ودمون Damon ونفس الشيء توحى به العبارات الشهيرة التى يستخدمها أفلاطون فى محاورة فيدروس (٢٧٠ أ)عن فصاحة بركليز وما تدين به من سمو ورفعة لصحبته أنكساغورس .

(٢) تضع التواريخ المقبولة لدى عامة المؤرخين فرار أنكساغورس من أثينا التى عاش فيها ثلاثين عاما ، قبيل نشوب الحرب البيلوبونيزية مباشرة ، حوالى ٤٣٢ ق . م . ولكن من

خلال السنوات التالية ما تزال تدرس على يد خليفته أرخلاوس Archelaus ، وكذلك على يد ديوجين الأبوللونى . وكان هيبوقراط الخيوسى عالم الهندسة الكبير قد وطد مركزه فى المدينة . ويؤكد لنا أفلاطون — وليس ثمت ما يبرر الشك فى قوله — أن بارمينيدس وزينوفون قد زارا المدينة حيث تعرف إليهما سقراط وكان مايزال شاباً حدثا . ولا بد أن زينون قد عاش هناك فترة من الزمن إذ نفحه أكثر من واحد من أبناء أثينا البارزين هبات سخية لقاء تعليمه(١) . وتصور لنا

= الواضح أن هذا لا يتفق مع ما يرويه أفلاطون الذى أطنب فى وصف الآمال التى أثارها فى قلب سقراط الشاب ومذهب أنكساغورس القائل بأن « العقل » هو علة النظام فى الكون ، ثم خيبة أمله فيه بعد ذلك . ويصر أفلاطون على أن سقراط لم يعرف بفكرة أنكساغورس إلا من قراءة كتابه (فيدون ٩٧ ب وما بعدها) وهو يريد بوضوح أن يقول إن أنكساغورس قد ترك أثينا قبل أن يبلغ سقراط من العمر ما يسمح له بأى اتصال شخصى به . وهذا يتفق كذلك مع القول بأن أنكساغورس قد قام فعلا « بتربية » بركليز، كما يتفق مع التفسير الطبيعى الوحيد لما ورد فى أخبار الإسكندرية (ديوجنيس ليرتيوس ٢ ؛ ٧) من أنه « بدأ الاشتغال بالفلسفة فى أثينا فى عام كالياس وهو فى العشرين من عمره » وعاش هناك ثلاثين سنة . وإذا كان المؤرخون قد حددوا مولده بسنة ٥٠٠ ق . م . فمعنى ذلك أنه جاء إلى أثينا فى عام سالامس Salamis (٤٨٠ ق.م) وربما كان قد جاء منخرطا فى جيش اجزرسيس xerxes وترك المدينة حوالى سنة ٤٥٠ ق.م. (ربما كان اسم الحاكم كالياس فى النسخ التى بين أيدينا تصحيفا لاسم كالياديس Calliades كما يسمى حاكم عام سالامس فى مكان آخر) وتبدو لنا هذه التواريخ ضرورية ، وإن كان تأريخى لها قد وصفه أحد الثقات الألمان بأنه « مستحيل » ويبدو أن التاريخ المأخوذ به لدى المؤرخين مبنى على ما كتبه إيفوروس Ephorus مؤرخ القرن الرابع ق.م . الذى لم يكن ثقة فى رواية الأخبار .

(١) يذكر أفلاطون (فى محاورة ألكيبيادس ١ — ١١٩ ا) أن كلا من فيثودوروس Pythodorus بن إيزولوخوس Isolochus وكالياس بن كالياديس قد نفح زينون مبلغا =

محاورات أفلاطون الأثر الضخم الذى تركته زيارات الزعيمين البارزين للحركة « الإنسانية » بروتاجوراس وجورجياس . ولا بد أن بروتاجوراس على أية حال قد وجد طريقه إلى بلاط بركليز ، الذى ضمه إلى اللجنة التى كلفت بوضع دستور لمستعمرته الهامة فى ثورى Thurii (سنة ٤٤٣ ق . م) فى جنوب إيطاليا . ويبدو أن زينون كذلك كان من بين أصفيائه .

ويبدو من المؤكد أن سقراط قد اكتسب فى أوائل حياته علماً وافيا بما كان فى عصره من علوم ، كما أنه وصل إلى التمكن فى الثقافة الإنسانية السائدة يومئذ . هذا ما يبرزه لنا أفلاطون . وخير شاهد على صدق ما يقول هو أن اعترافات زينون — التى تلفت النظر حقنا — تؤيدها تأييداً كاملا . وقد كان حريصا من أجل ما استهدف من دفاع عن سقراط — أن يثبت أن سقراط كان يتخذ وجهة نظره « النفعية » فى العلوم ، وأنه كان يعتقد بأن على الإنسان أن يعرف من الهندسة مقدار ما يعينه على « قياس مساحة قطعة من الأرض يشتريها أو يبيعها» ، ولكن دون أن يعنى نفسه « بالرسوم البيانية المعقدة » . ومن علم الفلك مقدار ما يعينه على « تحديد الوقت فى الليل ، أو الشهر أو السنة ليقوم برحلة برية أو بحرية ، أو يؤدى نوبة فى الحراسة الليلية ، دون أن يشغل نفسه

= كبيراً يبلغ مائة مينا . وفيثودوروس — الذى جعل أفلاطون اللقاء بين سقراط وبين بارمنيدس وزينون يتم فى بيته — هو قائد أثينى مبرز فى الحرب الأرشيدامية . وكالياس هو القائد الذى قتل أمام بوتيديا فى أوائل الحرب سنة ٤٣١ ق.م حين كان سقراط بين أفراد الجيش الأثينى.

بالكواكب ، والنجوم السيارة ، وأبعادها من الأرض ومداراتها وأسبابها » . ولكن زينون فى كلتا الحالتين يضيف على الفور قوله : « ومع ذلك فلم يكن بعيداً عن معرفة هذا الموضوع » ، وقوله : « ومع ذلك فلم يكن جاهلا بهذه الأمور » (وهكذا لم يكن اتجاهه المزعوم هو احتقار الجهل)(١) . ويحدثنا أفلاطون بأكثر من ذلك فى هذا الصدد ، حيث يجرى على لسان سقراط فى محاورة فيدون قصة يروى فيها تاريخ حياته(٢) فنعرف منها أن سقراط قد بدأ حياته متحمسا « للبحث فى الطبيعة » شغوفاً بكشف أسباب حدوث الأشياء وفنائها ، وقد درس النظريات الكونية المختلفة التى كانت شائعة يومئذ ، شرقيها وغربيها . وتشير القصة إلى أنه بدأ بنظريات ذينك الأستاذين المعاصرين اللذين يمثلان النمط الشرقى فى أثينا وهما أرخلاوس وديوجين الأبولونى وقد لفت نظره بشدة الاختلاف حول شكل الأرض . وكان يعرف المذاهب البيولوجية لأنبادوقليس الصقلى ، ونظريات الفيلسوف الإيطالى القميون الكروتونى

---

(١) زينون (ذكريات ٤ ، ٧ ، ١ — ٦) هذه الاعترافات من جانب زينون ، التى تناقض قصده الرئيسى مناقضة مباشرة ، لا يمكن أن تعنى شيئاً إلا أن سقراط كان يعرف كل ما يمكن معرفته إذ ذاك عن هذه الموضوعات . ولو أنه كما يقول زينون — كان يعتقد أن هناك أشياء أخرى يعتبر العلم بها ألزم .

(٢) فيدون (٩٦ إ — ١٠٠ ا) هذه الفقرة مع الصفحات الأولى من محاورة بارمنيدس هى أهم شواهدنا على الطريقة التى تصور بها أفلاطون التاريخ الفكرى لسقراط فى مقتبل حياته . ومادامت هذه الأحداث تقع قبل مولد أفلاطون بما يقرب من عشرين عاما ، فالصورة بطبيعة الحال متخيلة ، أنشأها أفلاطون من المعلومات التى بين يديه ، ولكن كان هناك كثير من الأفراد فى محيط أسرة أفلاطون يستطيع أن يستمد منهم المعلومات اللازمة .

Alcmaeon of-Cretona عن المخ بوصفه أداة الحياة العقلية ، وكانت تضايقه كثيراً تلك الصعوبات الرياضية المتعلقة بفكرة « الوحدة » وهي مشكلة أثارها زينون وقد أدى به التعارض الكامل بين أفكار أصحاب النظريات المتعارضة إلى اليأس في مبدأ الأمر ، ولكن فقرة قرئت عليه من كتاب أنكساغورس نزلت على قلبه كأنها الوحي ، فقد قال إن « العقل » (الكوني) هو السبب في كل ما للطبيعة من قوانين ونظام ، كما أن العقل (البشري) هو سبب انتظام الأعمال البشرية وترابطها . وقد أوحى هذا استقراط بأن الكون على اتساعه — مثله مثل الحياة البشرية حين تسير على الوجه الصحيح — هو المظهر المحسوس لتدبير عاقل متسق فإذا كان « العقل » (الكوني) هو سبب تكوين العالم ، فالأرض وكل شيء آخر في الكون لابد أن يكون له في نظام الكون من الشكل والوضع والمكان ما يعتبر بالنسبة له أفضل شكل ووضع ومكان . ومن ثم أخذ نفسه بدراسة أنكساغورس على أمل أنه قد وجد فيه المعلم الذي يستطيع أن يضع حداً للاضطراب العلمي ، بأن يبين كيف تكون كل دقيقة من دقائق الكون في « أفضل » وضع لها ، ومن ثم يبين الوضع الذي « لا بد » أنها موضوعة فيه ، في عالم يحكمه ويدبر شأنه « العقل » (الكوني) . ولكن هذه الآمال سرعان ما تحطمت حين ظهر له أن أنكساغورس لم يدخل « العقل » (الكوني) في فكرته إلا ليوضح الدافع للحركة اللولبية التي ظن أن النظام النجمي قد نشأ عنها ، دون أن ينتفع إطلاقاً بفكرة أن الكون الذي يدبره « العقل » (الكوني) ينبغي أن يكون الصورة المحسوسة

لتدبير عاقل . وقد كانت خيبة الأمل هذه التي دفعت سقراط لأن يقول ساخرا ، إن رأسه لا يصلح للعلوم الطبيعية ، وأن يختط لنفسه طريقاً ومنهجاً خاصاً في البحث .

وعلينا أن نبحث طبيعة هذه الطريقة الجديدة فيما بعد حين نستعرض فلسفة سقراط . أما في الوقت الحاضر فمن المهم أن نلاحظ أن الموقف الذى نفهمه من رواية أفلاطون هو ، من الوجهة التاريخية ، نفس الموقف الذى كان قائما فى أثينا فى فترة شباب سقراط ، وأن أفلاطون حريص على لفت أنظارنا إلى هذه الحقيقة بالتفصيلات الوافرة التى يعطينا إياها عن المذاهب المتعارضة التى توقع الحيرة فى نفس سقراط ، فيقف بينها مترددا . ومن الواضح أن أفلاطون لا يروى تاريخ شبابه هو ، فقد تغير الموقف الفكرى تغيرا تاما على عهده ، وصارت النظريات التى يتحدث عنها مهجورة[1] . وكذلك لا نستطيع على أساس سليم أن نفترض أنه يقصد أن يصف ، نمو عقل فيلسوف ، أيا كان (فليس من أسس عملية النمو هذه أن يتحير الفيلسوف فى مسألة شكل الأرض) ولكن من الواضح أنه يقص علينا ما يعتقد أنه الحق عن الأزمة الفكرية فى حياة بطله سقراط . وقد كانت لديه — كما رأينا — فرصة واسعة للتعرف على الحقائق المتصلة بالموضوع من سقراط نفسه ومن الآخرين . ونستطيع إذن أن نطمئن بدرجة معقولة إلى أن ما يقصه علينا دقيق فى جوهره . وإذا كان لا يعطينا

(١) ولا نحتاج أن نذكر أن أفلاطون — حسبما يروى عن نفسه — لم يكن يطمح فى شبابه إلى أن يكون من طلبة الدراسة والعلم ، وإنما كان يود أن يصبح من رجال الأعمال .

بطبيعة الحال أية تواريخ محددة أكثر من أن هذه الأحداث وقعت فى مقتبل حياة سقراط ، فما لاشك فيه أن الثورة الفكرية التى يصفها فى صفحة أو صفحتين ، ربما قد استغرقت وقتا طويلا حتى وصلت إلى تمامها .

وينبغى أن تؤخذ أقوال أفلاطون متصلة بما يؤكده ثاوفراسطوس(١) صديق سقراط وخليفته وأقدم من ألف فى تاريخ الفلسفة الإغريقية ، من أن سقراط كان حقا عضوا فى مدرسة أرخلاوس ، ذلك الأثينى الذى خلف أنكساغوراس ، حين اضطر هذا الفيلسوف إلى مغادرة أثينا. وقد انتقلت هذه العبارة من ثاوفراسطوس إلى سلسلة الكتاب الإسكندريين الذين ألفوا فى تاريخ الفلسفة ، إذ اتخذوا كتابه معينا ينهلون منه ، والثقين أنه لن يكون إلا الصدق بعينه ومن المؤكد أن ثاوفراسطوس نفسه كان — على الأقل — موجودا فى أثينا أثناء حياة أفلاطون ، وربما كان — كما تروى عنه بعض الأخبار — قد التحق بالأكاديمية فعلا . وقد كان كاتبا يتسم بالحرص فى مثل هذه الشئون التاريخية . أضف إلى ذلك أن عبارته يؤيدها رجل آخر من أصدقاء أرسطو هو أرسطو جزينوس التارنتى ، الذى ألف فى النظرية الموسيقية . وقد روى أرسطوجزينوس(٢) أن الصلة بين أرخلاوس وسقراط بدأت حين كان الأخير فى السابعة عشرة من عمره ، واستمرت بضع سنوات . وقد قرن بهذه العبارة قدرا كبيرا من التشنيع هدفه الحط من شأن سقراط . ولكن تفاهة هذا التشنيع

(١) ثاوفراسطوس ، آراء الطبيعيين ، شذرة ٤

(٢) شذرة ٥ ، (شذرات من تاريخ اليونان ، ٢ ؛ ٢٨٠).

لا تبرر عدم الثقة بما رواه عن حقيقة اتصاله بأرخلاوس ، يضاف إلى ذلك أننا نعرف أيضا أن إيون الخيوسي Ion of Chios شاعر المآسي في القرن الخامس قد روى أن أرخلاوس وسقراط قد زارا جزيرة ساموس معاً حين كان سقراط شابا يافعا[1] . وإذا كان إيون قد سجل كذلك في ، مذكراته ، مقابلته لبركليز وشاعر المآسي سوفوكليز في خيوس عام ٤٤١ / ٤٠ ، فمن الظن المحتمل أن تكون القصة الخاصة بأرخلاوس وسقراط مشتقة من السياق ذاته ، وأن إيون قد قابلهما معا وقت مقابلته لبركليز . وكان ذلك في أثناء ثورة ساموس على الأثينيين ، وحصار الأثينيين للجزيرة . ولا بد من أن نفترض أن أرخلاوس وسقراط (الذي كان حينئذ رجلا في الثامنة والعشرين أو التاسعة والعشرين من عمره) ، كانا من أفراد القوة الأثينية القائمة بالحصار ، وأن السبب الذي جعل أفلاطون يحجم عن ذكر أية إشارة إلى هذا الحادث ، بينما كانت الفرصة سانحة أمامه للحديث عن معارك سقراط ، هو — ببساطة — أن الحادث قد وقع قبل زمنه بكثير[2] ولا يقص علينا أفلاطون شيئا عن هذه العلاقة بين سقراط وأرخلاوس ، ولكن من الواضح أنها تمدنا بالإطار الصحيح

---

(١) ديوجنيس ليرتيوس (٢ : ٢٣) .

(٢) يستنتج من ذلك أن سقراط كان يقاتل أمام قوة يقودها الفيلسوف الساموسي المبرز ميليسوس Melisus

لقصته عن المقدمة التى كتبها سقراط للكتاب الذى وضعه أستاذ أرخلاوس العجوز[1] .

وفيما عدا رواية أفلاطون عن اللقاء بين سقراط وبين بارمينيدس وزينون ، وخيبة أمله فى كتاب أنكساغورس والعبارة التى أثبتنا نصها منذ هنيهة عن علاقته بمدرسة أرخلاوس ، فليس لدينا معلومات مباشرة عن أحداث حياته عن نشوب الحرب الأرشيدامية سنة ٤٣١ . ولكننا نستطيع مع ذلك أن نستنتج بعض النتائج ونحن على اطمئنان من صحتها . فمن الطبيعى أن نعتقد أنه ظل فترة من الوقت على صلته بأرخلاوس وأصفيائه ، وليس لنا أن نظن أن استغراقه فى طريقة البحث الجديدة قد تم فى أسابيع قليلة أو شهور . بل ربما كان لنا أن نحدس أنه عندما اعتزل أرخلاوس — ولا نعلم متى حدث ذلك — فإن سقراط كان خليفته فى الواقع — وربما بدا لنا ذلك عجيباً غريباً عندما نتذكر الإصرار العنيف الذى ينفى به سقراط فى محاورة « الدفاع » الأفلاطونية أنه كان له أى « تلاميذ » ، أو أنه كان فى يوم من الأيام « معلماً » لأحد من الرجال . ولكن هذا يتمشى تمشيا كاملا مع طريقة أفلاطون فى نفى ما ينفيه من أشياء . فإن الذى يهتم بنفيه سقراط فى محاورة « الدفاع » هو أنه احترف فى يوم من الأيام مهنة « تعليم الناس » لقاء أجر ، أو أنه اتخذ تلاميذ[2] وهذا يتمشى تماما مع

(١) المفروض أن الكتاب قد ألف فى السنوات الأخيرة من حياة المؤلف بعد إبعاده نهائياً من أثينا . ومن ثم فربما كانت محوياته جديدة على سقراط ، على الرغم من صلته بأرخلاوس ومدرسته .

(٢) الدفاع ١٩ د : « إذا كان قد قيل لكم إننى أتعهد بتعليم الناس وأتقاضى عن ذلك أجراً فهذا ليس بصحيح » وهى عبارة تمثل الطريقة التى يستخدمها أفلاطون فى نفى ما يريد نفيه (عن سقراط) .

كونه فى وقت من الأوقات قبل مولد أفلاطون كان على رأس جماعة من «الأصفياء» يشرف على دراستهم ولكن بلا أجر. (وينبغى أن نذكر أن اللفظ الذى كان يطلق على طالب علم كهذا بمدير الجماعة وقائدها لم يكن « mathetes » التى تعنى «التلميذ» وإنما كان « hetairos » التى تعنى المرافق «أو الصفى» والفرق كائن فى معنى الاحتراف الذى يوجد فى اللفظ الأول ولكنه لا يوجد فى الأخير). وهناك فى الحقيقة مجموعة كبيرة من الشواهد تدل على أن سقراط فى أيامه الباكرة كان حقا أشبه شىء برئيس «مدرسة» منظمة.

وواضح أن هذا هو فحوى الصورة الهزلية التى رسمها أرستوفان فى مسرحية «السحاب»، فهناك يصور سقراط تصويراً ساخراً على هيئة رئيس لمجموعة من الطلبة — تصفهم المسرحية الساخرة بطبيعة الحال بأنهم «تلاميذ» — يعيشون معه فى منزله، ومن المسلم به أنهم مزودون بما تحتاج إليه مدرسة علمية من خرائط وأجهزة. وهؤلاء النزلاء فى «مصنع الأفكار» كما يسمى أرستوفان منزل سقراط، يصورون وقد جمعوا بين طبيعتين: فهم جماعة من الزهاد والجياع المؤتزرين بالمرقعات، تغلب عليهم نزعة «روحانية» غير عادية، وهذا يفسر السبب فى استقبالهم بالضحكات المدوية حين يطلق عليهم اسم «أحكم الأرواح»[1] وهو تعبير كان فى أثينا القديمة فى القرن الخامس يعنى «العفاريت». وهم كذلك من

(١) أرستوفان. السحاب ٩٤.

المتعلقين بعلوم الفلك والجغرافية وعلم طبقات الأرض[١] ، ويدينون بمذهب فى علم نظام الكون نعرف فيه على الفور مذهب ديوجنيس الأبولونى Diogenes of Apollonia الذى يفسر كل شىء على أنه مكون من « الهواء » وهذا هو السبب فى تصويرهم على المسرح يصلون للسحب ، وهو كذلك السبب فى أن سقراط يقوم بتأملاته وهو يتأرجح معلقاً فى آلة من نوع معين ، ليحفظ الهواء الذى يتكون فى عقله من الاختلاط برطوبة سطح الأرض[٢]. ومن الصعب أن نفهم لمسرحية ساخرة من هذا النوع معنى إلا إذا كان هناك أساس من الواقع وراء هذه الصورة المشوهة. فإذا اعتبرنا هاتين الحقيقتين : وهما أن سقراط كان يؤمن بمعتقدات قريبة من معتقدات الأورفيين فى خلود الروح ، وأنه فى فترة من فترات حياته كان هو الشخصية البارزة التى تتزعم جماعة من الطلاب يدرسون علم نظام الكون ، ويعتنقون وجهة النظر التى سميناها النظرية الشرقية ، فإن صورة أرستوفان الهزلية تصبح ذات معنى أما إذا لم نسلم بهذا الأساس فإنها فى الواقع تصبح خاوية من كل دلالة[٣] .

(١) أرستوفان . السحاب ١٨٤ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ٢٢٥ وما بعدها .

(٣) وهكذا نرى أن هناك هدفا ساخراً فى جعل الدير أوليفرلودج بطلا لمسرحية ساخرة من هذا النوع . ولم يكن ليصبح له معنى لو أنها أسندت «مثلا» الى المستر تشسترتون . ومن شاء أن يدرس مسرحية السحاب دراسة مفصلة من وجهة النظر هذه فى إمكانه أن يرجع إلى مقال بعنوان The Phrontisterion فى كتابى المسمى منوعات سقراطية Varia Socratica (طبع أكسفورد) ص ١٢٩ وما بعدها .

وهناك قسم من « ذكريات »[1] زينون له قيمة خاصة ، لا بد أنه يشير إلى فترة من حياة سقراط الباكرة ، نستطيع أن نستمد منها بعض الضوء نلقيه على الحقيقة الماثلة وراء صورة أرستوفان الهزلية . فقد كان أنتيفون Antiphon السوفسطائى — كما يقول زينون — حريصاً على انتزاع تلاميذ سقراط واجتذابهم إلى جانبه (ولا نعلم التاريخ المضبوط لأنتيفون ، ولكن من المؤكد أنه من الشخصيات التى برزت فى أيام الحرب الأرشيدامية) ومن ثم فقد وجه إلى سقراط نقداً علنياً مغرضاً على مسمع من رفقائه . وقد علق — أولا وقبل كل شىء — على حياة الزهد التى كان يحياها سقراط ، وعلى ملابسه الرقيقة وقدميه الحافيتين وطعامه الهزيل ، وهى خصائص أبرزها أفلاطون وزينون كما أبرزها أرستوفان وزملاؤه من الهزليين . وقد انتقده زيادة على ذلك لأنه رفض أن يأخذ أجراً من رفقائه على الخدمات التى يؤديها لهم ، وكانت حجته فى ذلك أن الخدمات التى تؤدى بلا مقابل قد لا تقدر لها قيمة . وقد جعل سقراط يرد على هذه النقطة الثانية بأن يعقد مقارنة بين « صاحب الفطنة » الذى يبيع علمه والمخنث الذى يبيع « جاذبية سحره » ثم يشرح على وجه أدق طبيعة العلاقة بينه وبين أصفيائه المشار إليهم بطريقة تظهر للملأ أنها ليست من النوع الذى يجوز أخذ الثمن عليه فيقول : « إن الصديق الصالح يمنحنى نفس السرور الذى يمنحه الفرس الطيب أو الكلب أو طيور الصيد لرجل من طراز آخر ، بل أكثر . فإذا

(١) زينون « ذكريات » ١ — ٤ .

عرفت شيئاً صالحاً فإنى أعلمه لأصدقائى وأقدمهم لآخرين أتوسم فيهم أنهم سيقدمون لهم نفعاً . وأضم نفسى إلى أصدقائى فى الكشف عن كنوز الفطنة القديمة ، التى تركها الأقدمون فى أوراق مسطورة ، فإذا وجدنا فيها شيئاً صالحاً التقطناه ، وأحسسنا أننا كاسبون كسباً عظيماً إذا أصبحنا أصدقاء[1] » . وسقراط الذى نراه هنا على النقيض من الرجل الذى يحمل رسالة لكل الناس . ذلك الرجل الذى نعرفه جيداً من حديث أفلاطون وزينون ، مما وعته ذاكرتهما من ذكريات شخصية عنه . فهو على وجه التحديد يطلب العلم على « أصحاب الفطنة من القدماء » الذين كانوا بغير شك هم فلاسفة الماضى وعلماؤه ، وحوله حلقة من زملائه طلبة العلم تختلف تمام الاختلاف عن الشباب الخلى البال من الأسر الغنية الذين تحلقوا حوله فى سنواته الأخيرة — كما يقول أفلاطون — ليستمتعوا بالاستماع إليه وهو يعرض بجهل الشخصيات البارزة[2] . وإن علاقته بهذه الحلقة كموجه لأبحاثها ودراساتها لهى علاقة يسهل على أنتيفون أن يخلط بينها وبين « المعلم » المحترف . وواضح أن زينون هنا قد حفظ لنا ملاحظة هامة مستمدة من أحد رجاله سقراط السابقين على عهده ، وإنها لكافية فى إثبات أن « مصنع الأفكار » الذى تعرضه مسرحية « السحاب » هو مسخ — من أجل الهزل — لشىء له وجود حقيقى .

ومن المهم أن نذكر أن شهرة سقراط من حيث هو رجل ذو قوة

---

(١) المرجع السابق ، ١٤ .

(٢) أفلاطون — الدفاع — ٢٣ حـ

فكرية خارقة ، لا بد أن تكون قد توطدت أركانها فى ذلك النصف الأول من حياته ، وأن علاقاته بالسوفسطائيين المشهورين — بصفة خاصة — لا بد أنها ترجع إلى هذا التاريخ . وهذا هو الذى يستفاد بوضوح من كتابات أفلاطون فى أكثر من موضع . فالصدام العنيف بين سقراط وبروتاجوراس Protagores وهو أبرز السوفسطائيين ، ذلك الصدام ، الذى يصفه أفلاطون فى أروع محاوراته من جهة الفن المسرحى ، مفروض فيه أنه حدث قبل أن تنذر الأمور بنشوب الحرب الكبرى . والكيبيادس الذى حارب فى صفوف الفرسان فى معركة بوتيديا Potedaea[1] يظهر فى محاورة « بروتاجوراس » وهو مايزال على أبواب الرجولة . و « أصحاب الفطنة » البارزون — وبعضهم ينتمى إلى مدن صارت فيما بعد « دولا أعداء » فى الحرب — كلهم يجتمعون فى منزل كالياس Callias فى إخاء وسلام . هذا ، ومن المسلم به فى هذه المحاورة أن هؤلاء جميعاً يعرفون سقراط معرفة شخصية . بل إنه ليشير[2] — كما فعل أكثر من مرة فى مواضع أخرى من مؤلفات أفلاطون — إلى أنه قد استمع إلى إحدى محاضرات بروديكوس Prodicus الأقل نفقة . وكان بروتاجوراس على الأخص قد تعرف إليه قبل ذلك بسنوات . وهو هنا يطريه بقوله إنه قد وجد فيه يومئذ أقدر من رآه فى مثل تلك السن (يقصد السن

---

(١) أفلاطون — المأدبة ٢٢٠ د — هـ

(٢) بروتاجوراس ٢٤١ راجع محاورة خرميدس ١٦٣ د ، وميمنون ٩٦ د ، وأقراطيلوس ٣٨٤ ب . ولا معنى لهذه الإشارات إذا لم تكن تشير إلى حقيقة واقعة .

الصغيرة) وإنه واثق أشد الثقة فى مستقبله[1] وعلاقات سقراط بهؤلاء الرجال — كما يصفها أفلاطون — ترجع إلى الفترة الأولى من حياته قبل أن يبدأ رسالته ، — وإن كان الباحثون كثيراً ما يغفلون هذه النقطة — ولم تكن تلك العلاقات إلا علاقات صداقة ومودة . ولا يُذْكَر السوفسطائيون مرة واحدة فى محاورة الدفاع بين الطوائف التى أصبحت مناقضتها ومهاجمتها جزءاً من رسالته ، فهم يعجبون بمقدرته ، وإن كان فى هذا الإعجاب شىء من الإدلال عليه وإظهار العطف . وموقفه منهم هو مزيج له طابعه الخاص من الاحترام لجهودهم الصادقة ، والعجب المؤدب من الرضا النفسى الذى يجعلهم غافلين عن مواضع قصورهم .

ولدينا — كما أوضح بيرنت — بالإضافة إلى مامضى شواهد أخرى غير مباشرة على المكانة البارزة التى أحرزها سقراط لنفسه قبل أن يبلغ الأربعين من عمره فى الدوائر الفكرية على محيط واسع خارج أثينا . ونعرف من محاورة فيدون[2] الأفلاطونية أسماء الأشخاص الذين كانوا موجودين إلى جواره فى فراش الموت ، واسم واحد أو اثنين من الآخرين الذين كان يتوقع حضورهم . وفى كلام زينون ما يؤيد أن كثيراً من هذه الأسماء هى أسماء أصدقاء لسقراط . وكان بين الحضور على الأخص شابان من طيبة هما سيمياس Simias وسيبيس Cebes اللذان

---

(١) بروتاجوراس ٣٦١ هـ إن السبب الأوحد الذى دفع بروتاجوراس فى المحاورة إلى أن يلجأ إلى سقراط ليعرفه بالرجل العظيم هو أن سقراط يعرف بروتاجوراس تمام المعرفة من قبل.
(٢) ٥٩ ب — ج .

كانا فى يوم من الأيام من تلاميذ فيلولاوس Philolaus الفيثاغورى ، والاثنان الإيليان من ميجارا وهما إقليدس وتربيون Terpion . ويسمى زينون كلا من سيمياس وسيبيس من بين الرجال ذوى الأقدار العالية الذين كانوا يترددون على سقراط حرصاً منهم على الخير الذى تصيبه أرواحهم . وكان أرستيبوس Aristippus القوريناتى السيد المهذب الذى يعتبر العالم كله وطأ له — ولو أنه لم يحضر إلى سقراط بالفعل — كان على صلات وثيقة به إلى حد شعر معه أفلاطون أنه لا بد أن يفسر غيابه بسبب من الأسباب . وقد جعل زينون أرستيبوس — رغم كراهيته له — عضواً فى حلقة سقراط ، وجعله يتلقى من سقراط لوماً عنيفاً على حياته العابثة المستهترة[1] . ويظهر أفلاطون اهتمام الفيثاغوريين الخاص بسقراط بأن يجعل فيدون الأليزى هو الذى يحمل نبأ وفاة سقراط إلى أشقراط Echecrates الفيلوسى الفيثاغورى وجماعة من الرفقاء لا تذكر أسماؤهم . ويصورهم على أنهم من المعجبين المتحمسين ، المتلهفين على سماع قصة مفصلة عن اللحظات الأخيرة للرجل العظيم . هذا وقد كانت المدن التى ينتمى إليها معظم هؤلاء — وهى طيبة وأليس وفيلوس — « دولا أعداء » فى أثناء الحرب البيلوبونيزية التى ظلت — رغم « السلم » التى تقررت اسماً سنة ٤٢١ ق . م — ناشبة على الدوام تقريبا منذ بلغ سقراط الأربعين .

(١) « ذكريات » .i. ii وربما كانت العداوة التى تظهر فى هذا الفصل تجاه أرستيبوس مثالا حقيقياً لتأثير أنتستانس Antisthenes على زينون . وقد كان على سبيل اللوم والتعذير لأرستيبوس أن قص عليه سقراط حكاية « اصطفاء هرقل » التى يقول زينون إنه أخذها من محاضرة لبروديكس Prodicus .

من عمره حتى السادسة والستين . ويبدو من المنطق إذن أن صلاته بكبار السن من بين هؤلاء الفلاسفة غير الأثينيين لابد قد بدأت قبل بلوغه الأربعين ، وأن الجماعة الفيثاغورية المتفرقة فى أنحاء شتى من العالم الإغريقى لابد أنها كانت تنظر إليه فى تلك الأيام على أنه معلم يتمتع فى نفوسهم بالهيبة والاحترام الشديد . وإلا فمن الصعب علينا أن نفهم حرص الشبان من تلاميذ فيثاغورس الموجودين فى طيبة على أن يسارعوا إلى صحبته بمجرد أن مكنتهم من ذلك انتهاء الحرب الكبرى . وهذا اللون ذاته من « السمعة العالمية » هو ما تتضمنه الملاحظة التى حفظها لنا أسكينس Aeschines حين قال إن أول ما اجتذب أرستيبوس القوريناى إلى أثينا كان « شهرة سقراط »[1] . وواضح من مدلولات هذه الوقائع كلها أن سقراط — على عكس ما تصوره بعض المؤلفات الحديثة — كان منذ مرحلة باكرة فى حياته قد نال شهرة واسعة بوصفه شخصية بارزة فى الدوائر الفكرية خارج أثينا . وهذا يتفق بدقة مع ماقرره أفلاطون عن الأثر الذى تركه وهو شاب صغير فى نفوس البارزين من « الأجانب » من أمثال پارمينيدس وپروتاجوراس ، ولكنه بعيد كل البعد عن نظرية القرن التاسع عشر العجيبة التى تحوله إلى عبقرى شاذ نشأ فى طبقة الكادحين .

وهذا الرأى ذاته لمكانته فى حياته الباكرة ، هو ما تتضمنه القصة الشهيرة التى يقصها أفلاطون بالتفصيل فى محاورة « الدفاع » عن تصريح

---

(١) D. L., ii, 65

عرافة معبد دلفى بأنه « لا يوجد بين الأحياء من هو أحكم من سقراط »[١]
وعلى الرغم من تشكك قليل من الكتاب الألمان المحدثين ، فليس هناك موجب معقول للشك فى أن هذه النبوءة كانت حقيقة تاريخية . ولم يكن أفلاطون ليستطيع تصوير سقراط وهو يقص هذه القصة بتفصيلاتها على قضاته — وكثير منهم لابد قد قرأوا محاورة الدفاع — إذا لم يكن قد تحدث عنها بالفعل ، ولم يكن من العقل فى شىء أن يجعله يروى هذه القصة ويعرض استعداده لتقديم الشهود على صحتها — كما صوره فى تلك المحاورة — إذا لم يكن ذلك قد حدث بالفعل . وليست هناك صعوبة على الإطلاق فى أن ندرك لماذا نطقت كاهنة دلفى بتلك النبوءة ، وإن كان بعض المؤرخين قد حيروا أنفسهم بشأنها . فسقراط يحدثنا فى محاورة أفلاطون أن النبوءة أعطيت لصديقه شيريفون Chaerephon الذى ابتدرها بهذا السؤال : « هل هناك بين الأحياء من هو أحكم من سقراط ؟ » وكما يحدث فى مثل هذه الأحوال ، أعطى شيريفون الإجابة التى طلبها بصورة مباشرة.
والذى نستطيع أن نتبينه هنا فى واقع الأمر هو كون السؤال قد وجه بالفعل . ذلك أن تقديم السؤال معناه أن سقراط كان لا بد قد وصل إلى درجة من الشهرة تمكن أحد المعجبين به من التقدم بهذا السؤال دون أن يجعل نفسه بذلك موضع السخرية من السامعين . فلا يمكن أن يسأل سؤال كهذا إلا عن رجل قد اشتهر فعلا فى الدائرة المحيطة به بوصفه من « أصحاب الفطنة » . هذا ويبين أفلاطون بوضوح أنه يعتقد بأن شيريفون قد تقدم

(١) الدفاع ٢١ ا وما بعدها .

بهذا السؤال للعرافة قبل نشوب الحرب البيليبونيزية ، أى قبل أن يبلغ سقراط سن الأربعين . فالمحاورة تجعل سقراط يقرر أن شهرته بين الشباب فى سنواته الأخيرة قد نتجت عن المتعة التى يستمدونها من قيامه برسالته فى عرض جهالة كبرائهم ، كما يقرر أن قيامه بهذه الرسالة كان واجبا ألقته عليه نبوءة الكاهنة وهذه الشهرة الواسعة فى أوساط الشباب والنشء متضمنة فى محاورة أفلاطون المسماة « خرميدس » Charmides حيث يجعل سقراط ، العائد لتوه من المعركة التى وقعت أمام بوتيديا (٤٣١ — ٤٣٠) فى مستهل الحرب ، يسأل على الفور عن « حالة الفلسفة الراهنة » فى أثينا ، ومدى اهتمام « الشبان » بها[٢] . فالمفروض إذن — بحسب كلام أفلاطون — أن نبوءة العرافة قد حدثت فى فترة أسبق من ذلك .

ومن المهم أن نتوسع فى الكلام عن حادثة النبوءة هذه ، إذ يبدو — إذا كان تصوير أفلاطون موثوقا به — أنها قد أحدثت أزمة روحية لسقراط . فمن الطبيعى أن نتصوره — من الملاحظات التى قدمها لنا أفلاطون عن الفترة الأولى من حياته — رجلا بارزا فى الدوائر الفكرية العليا ، متمكنا من آخر ما وصل إليه العلم فى عصره ، وإن كان شديد السخط على حالة المعرفة العقلية ، وصاحب نظارات خاصة مبتكرة بكل تأكيد بشأن الأسس الأولى التى يستند إليها التفكير ومناهج البحث الفلسفى . ولكنه على الرغم من الاحترام الذى يتمتع به لدى جميع المفكرين فى عصره ، ورغم أن له مجموعة من الخلصاء المعجبين ، الذين

---

(١) خرميدس ١٥٣ د

يرون فيه أبرز « أصحاب الفطنة » جميعا ، رغم ذلك كله فليس له — بعد — شيء من صفات الرجل الذى يحمل رسالة للناس كافة ، ليقنعهم بجهلهم بكل ما كان على الإنسان أن يعلمه ، وبالأهمية البالغة « لعناية الناس بأمر أرواحهم » . فهذا — كما يقول أفلاطون — هو الشيء الذى يبدو بوضوح أنه يميز سقراط فى الفترة الأخيرة من حياته ، عن سقراط الذى تسخر منه مسرحية أرستوفان فى صورة المتعالم المتفيهق سخرية يفهمها الناس .

وقد كانت « الرسالة » بحسب رواية أفلاطون فى محاورة « الدفاع » نتيجة مباشرة لنبوءة عرافة أبولو . ويبين سقراط أن رأى الإله فيه قد أذهله فى مبدأ الأمر ، إذ كان على بينة من أنه لم يكن صاحب حكمة خاصة . ومن ثم أخذ يعمل لإثبات كذب أبولو ، بالبحث عن رجل يكون أحكم منه . وقد بحث عن مثل هـذا الرجل بادئ ذى بدء بين البارزين من رجال مدينته « أى رجال السياسة » ثم بين الشعراء ، وأخيرا بين التجار وأصحاب الحرف . ولكنه لم يصل من كل ذلك إلى شيء . فبين الطائفتين الأوليين لم يجد شيئا من المعرفة الحقة على الإطلاق ، فلا الساسة ولا الشعراء استطاعوا الإدلاء بشيء مفهوم عن المبادئ التى تقوم عليها سياستهم أو فنهم . أما أصحاب الحرف فقد كانت لهم مزية على أقرانهم ، إذ كانوا يدركون أعمالهم حقا ، ولكنهم مع الأسف يتجاوزون حدودهم فيعتقدون أنهم يفهمون المسائل الأخرى الهامة بنفس المستوى الذى يفهمون به حرفهم الخاصة . وفى الوقت المناسب أشرقت على سقراط أضواء المعنى الحقيقى لنبوءة العرافة .

لقد كان معناها أن البشر جميعا جاهلون كل الجهل بالأمر الأوحد الذى ينبغى عليهم أن يعرفوه. وهو أن يسلكوا السبيل إلى تقويم حياتهم والعناية بأرواحهم وإصلاحها بقدر المستطاع، وأنهم جميعا عمى عن هذه الجهالة. وسقراط هو الاستثناء الوحيد. فاذا كان هو أيضا لا يملك هذه المعرفه الهامة إلى أقصى حدود الأهمية، فإنه يعرف أهميتها ويعرف جهله بها. إنه — على الأقل — هو الأعور فى مملكة العميان، وأحكم الناس بالنسبة لواقع الناس وهذا هو ما يجعله يحس أنه واجب ألقاه الإله على عاتقه أن ينشد المعرفة الكبرى مثابرا على طلبها، وأن يحاول إقناع كل إنسان — مواطنا كان أو أجنبيا — ممن يقبلون الاستماع إليه، بأن ينشدها معه. وهذه — كما تقول محاورة الدفاع — هى الطريقة التى تحول بها سقراط «الفطن» إلى «مؤسس فلسفة الأخلاق».

ولا جدال فى أن هذا فى ظاهره ينطوى على نوع من الدعاية فى الطريقة التى أقحمت بها قصة النبوءة فى هذه الرواية، ولكنها لن تكون ذات معنى على الإطلاق إلا إذا كان قد قصد بها تسجيل حقيقة تاريخية فيما تسند إليه من افتراض رئيسى، هو أن سقراط فى منتصف حياته قد مر بأزمة خرج منها وهو على بينة من أن له رسالة، وأن جواب العرافة كان له أثر فى إثارة هذه الأزمة. وربما كان مما له دلالة أن أفلاطون يصوره وهو يحاول أن «يحول إلى عقيدته» شابا توسم فيه الخير هو خرميدس عم أفلاطون، بعد حملة بوتيديا مباشرة، تلك الحملة التى وقعت له فيها الغيبوبة التى استمرت أربعا وعشرين ساعة، والتى جاء وصفها فى محاورة «المأدبة» ولو عرفنا مزيدا

من الحقائق ، فربما نجد أن الدعوة الموجهة إليه أن يكون نبيا قد جاءته خلال هذه الغيبوبة ، ويكون بيرنت موفقا وملهما فى قوله إن هذا يفسر لنا لماذا نجد فى كتابات أفلاطون أنه كثيرا ما يلجأ إلى لغة الواجب العسكرى يصف بها إحساسه بالمهمة التى ألقاها الإله على عاتقه . ويبدو واضحا على الأقل أن رواية أفلاطون ترجع إيمانه بأن الرجل قد تميز بواجب معين تجاه البشرية إلى تاريخ يقرب من بداية الحرب البيلوبونيزية ، وليس قبل ذلك . فاذا تصورناه على الصورة التى لا بد أنه كان عليها قبل أن يتقدم شيرفون بسؤاله الخطير إلى أبولو ، فان الصورة التى يرسمها له أفلاطون فى الصفحات الأولى من محاورة « بارمينيدس » وروايته عن أيام حياته الأولى فى « فيدون » والمصدر المجهول الذى استمد منه زينون ما يرويه لنا عن العلاقة بين سقراط وأنتيفون ، والمسرحية الساخرة «السحاب» كل ذلك نجده يتسق بعضه مع بعض بصورة محكمة (١) .

(١) هذه بالذات هى النقطة التى لا أستطيع فيها أن أتمشى مع البيان القيم الذى يقدمه لك . ريتر فى كتابه عن « سقراط » فهو يعترف اعترافا كاملا بأنه ينبغى علينا أن نتقبل قول أفلاطون عن سقراط أنه كان متفقهاً فى كل علوم عصره ولكنه يومىء إلى أنه اكتسب هذه المعرفة عن قصد فى مستهل حياته ، كجزء مقصود من التهيؤ «للرسالة» ويخيل الى أن هذا لا يتسق مع تصوير أفلاطون الذى يستفاد منه أن إدراك سقراط للرسالة لم يحدث إلا فى منتصف حياته . وعلى أية حال فلا يجوز أن نخطىء فنظن أن « العلامة الإلهية » أو «العلامة الخارقة للطبيعة» لها أية صلة بالموضوع . فأفلاطون لا يشير إلى هذه «العلامة» أصلا فى ذلك الجزء من محاورة «الدفاع» الذى يصف فيه منشأ الرسالة . وحين يتحدث عن « العلامة » يتحدث عنها على أنها شىء يرجع إلى طفولة سقراط .

ونستطيع أن نجمع من أفلاطون وغيره بعض المعلومات عن الأشخاص الذين لابد أنهم كانوا يؤلفون «حلقة» سقراط فى تلك الأيام قبل الحرب الكبرى . فسنجد بادىء ذى بدء بين أقرب خلصائه ذلك الصديق الثرى المخلص أقريطون ، ابن بلدته ، وهو رجل يقاربه فى العمر . ثم هناك ذلك المعجب المستهام شيريفون الذى يسخر منه الشعراء الهزليون من أجل جلده الشاحب وسحنته الداكنة ، ومظهره الذى تبدو عليه المسغبة والجوع .

وأرستوفان يصوره على أنه شريك سقراط الذى يلعب دور «الأرواح» فى «روحانيات سقراط»[1] وبعض الذين اعتبروا فيما بعد «سقراطيين» ممن يكبرون هؤلاء سنا ، يمكن اعتبارهم أصدقاء لسقراط ابتداء من هذه الفترة العامة ، ومن المحتمل جدا أن يكون بين هؤلاء أرستيبوس القورينائى وأنتستانس ذلك المتصوف الشديد اللجاج الحاد اللسان ، وربما كذلك إقليدس وتربسيون Terpsion والإيليبون (من ميجارا) كما ذكرنا من قبل . ولم يكن أفلاطون وزينون وأسكينس قد ولدوا بعد بطبيعة الحال . وينبغى أن ندرج من بين البارزين الذين لابد أنهم كانوا على صلة شخصية وثيقة بالفيلسوف منذ نشوب الحرب

---

(١) أرستوفان . الطيور ١٥٥٣ وما بعدها ، حيث يسخر من سحنة شيريفون الداكنة بأن يطلق عليه كنية «الخفاش» وفى السحاب ٥٠٣ يجعل سقراط يعد سترسيادس Strepsiades العجوز أن جزاءه على مثابرته على الدرس فى «مدرسته» هو أن يصبح مثل شيريفون تماما مما يجعله يرد فى ذعر : «يا للهول إذن سأصبح جثة حية» .

الكبرى — ينبغى أن ندرج أولا وفى الطليعة منهم أهمهم وأذكاهم جميعا ألكبيادس عبقرى الديمقراطية الأثينية الشرير ، الذى دللته تلك الديمقراطية حينا وانقلبت عليه حينا آخر . ثم رجلين من أقرباء أفلاطون هما عمه خرميدس Charmides وأقريتياس ابن عم أمه اللذان جلبا على نفسيهما من العار أكثر مما جلب ألكبيادس على نفسه [١] ونستطيع أن نضيف للقائمة — متخذين شاهدنا من كتاب الجمهورية أخوى أفلاطون الكبيرين ، أديمانتوس Adimantus وجلوكون Glaucon ، وأسرة سيفالوس Cephalus السيراقوسى الثرى صاحب المصانع ، وهو من صنائع بركليز ، ووالد ليزياس Lysias مؤلف الخطب المشهور . ويخطو أفلاطون خطوة أبعد ، فيصور أن الفيلسوف على علاقة ودية مع بعض الأفراد من ذوى الاتصال المباشر ببركليز ، وخاصة زوجته غير الشرعية أسبازيا Aspasia الشهيرة [٢] ، وكالياس الشديد الثراء ابن هيبونيكوس

---

(١) يصف كل من أفلاطون فى محاورة «المأدبة» وأسكينس فى بقايا كتابه المسمى ألكبيادس ، يصفان العلاقة بين ألكبيادس وسقراط على أنها ترجع إلى العهد الذى كان فيه ألكبيادس مايزال صبيا ، ولابد أنه كان قد بلغ العشرين من عمره حين قاتل فى صفوف الفرسان فى بوتيديا . وتصف محاورة خرميدس توثيق الصلة بين سقراط وخرميدس — الذى كان يومئذ فتى صغيرا بعد معركة بوتيديا مباشرة — على يد أقريتياس ، الذى يفهم من السياق أن علاقته بسقراط كانت قائمة من قبل .

(٢) يعترف سقراط بعلاقة المودة بينه وبين أسبازيا فى محاورة أفلاطون المسماة منكسينوس Menexnus وكتب أسكينس حوارا عن موضوع هذه الصداقة . وفى محاورة أفلاطون نجد كالياس هو المضيف الذى يرحب ببروتاجوراس ، وهو كذلك شخصية بارزة فى محاورة زينون المسماة « المأدبة » الذى جعل منزله فى بيرايوس Piraeus سنة ٤٢١/٢٠ وقد عمر طويلا جدا ، وكانت أبرز أعماله العامة بعد وفاة سقراط .

Hipponicus أثرى أثرياء أثينا فى ذلك العصر . وإذ كان أسكينس فى إحدى محاوراته السقراطية الضائعة المسماة ميليتيادس Militiades ، وقد ذكر ميليتيادس بن ستزاجوارس Stesagoras وهو أحد أفراد أسرة فيليداى Philaidae العظيمة ، فيبدو أن سقراط قد عرف طريقه إلى حلقة كيمون Cimon أيضاً كما عرف طريقه إلى حلقة بركليز . ونعرف أكثر من ذلك من محاورة « لاخس » الأفلاطونية أنه كانت له صداقة قديمة مع أسرتى توسيديدس Thucydides بن ميليزياس Melesias ، وأرستيدس العظيم ، كما أنه كان معروفا جيداً عند نيخياس الثرى الموقر التعيس الحظ ، قائد ذلك الفريق من الديمقراطيين الأثينيين الذين كانوا أكثر اعتدالا وأكثر تحملا للتبعة ، فى السنوات التى تلت وفاة بركليز ، والذين كانوا يعارضون الحزب الأكثر ميلا إلى الروح العسكرية ، الذى جعل من كليون Cleon وألكبيادس على التوالى وثنين معبودين ، ويشير أفلاطون مراراً إلى صداقة قديمة العهد مع رجل آخر من البارزين أبعد من أولئك عهداً ، هو دامون Damon الموسيقار المبرز الذى كان يعتقد أنه — كأنكساغورس — قد « ربى » بركليز واستحثه على اتخاذ بعض الخطوات الديمقراطية التى اتخذها .

ويروى كتاب عصر الإسكندرية كذلك نوادر عن صداقة شخصية بين سقراط وشاعر المآسى يوربيديز Euripides الذى ربما كان يكبره بحوالى اثنى عشر عاما ، ويستشهدون — لتأييد رأيهم — بفقرات من المسرحيات الهزلية المعاصرة لذلك الوقت ، التى تصور يوربيديز يستمد

وحيه فى رواياته من سقراط(١) . وما دمنا لا نملك أية معلومات أسبق ولا أدق ، فلانستطيع بطبيعة الحال أن نحكم ما إذا كان هناك أى أساس لهذه الدعابات أكثر من روح الاستقصاء والتشكك فى الآراء التقليدية ، وهى روح مشتركة بين كل من كاتب المأساة والفيلسوف . ويظهر كاتب مآس آخر حديث السن يسمى أجاثون Agathon فى كتابات أفلاطون كصديق ومعجب بسقراط ، فتصف محاورة « المأدبة » حفلاأقيم فى منزله للاحتفال بفوزه بين كتاب المآسى لعام ٤١٥ ق . م. ويظهر أرستوفان فيها على أنه واحد من المدعوين فى الحفل . ويزعم أفلاطون أنه على الرغم من المسرحية الساخرة التى كتبها أرستوفان عن سقراط قبل ذلك بثمانى سنوات ، فإنهما على أحسن حال من الصداقة والمودة . وإذا كان أفلاطون — كما نرى من محاورة الدفاع —(٢) يعتقد أن بقايا من مسرحية السحاب

(١) فى موضوع أحاديث العصر السكندرى عن العلاقة بين سقراط ويوربيديز انظر D. L. ii 18,33 والذى يدل على أننا لانستطيع أن نثق فى هذا النوع من المزاعم التى تبدو من الظاهر صحيحة ، أنه قد ورد فى إحدى هذه الملاحظات (ديوجيس ليرتوس ٢ ؛ ٤٤) نص عن يوربيديز فحواه أنه لام الأثينيين على مقتل سقراط فى كتابه بالاميدس . وإذا كان أرستوفان قد « مسخ » محاورة بالاميدس فى كتابه . تسموفريازوسا Thesmophoria zusse (الذى ألفه سنة ٤١١ ق م) فان الإشارة المزعومة إلى مقتل سقراط تكون قد كتبت قبل الحادث بسنوات . والمفهوم أن مصدر القصة كلها ببساطة هو أن سقراط يشير فى محاورة الدفاع الأفلاطونية (٤١ ب) إلى قصة الحكم الظالم الذى صدر باعدام بالاميدس كمثل لحالته هو .

(٢) الدفاع ١٩ جـ — يحاول ل . روبين L. Robin فى مقدمته البارعة للطبعة التى أخرجها من محاورة « المأدبة » فى مجموعة Collection des Universies de France يحاول محاولة بارعة أن يبين أن غرض أفلاطون الواضح من طريقة تصويره لموقف =

عالقة بالأذهان قد أدت إلى الحكم على سقراط ، بما أوجدت من تحامل عليه فى أذهان القضاة ، فلا أستطيع أن أعتقد أن أفلاطون كان يمكن أن يتخيل من عنده وجود مثل هذه العلاقة بعد مقتل أستاذه . ومن الأفضل أن نتقبل تصويره على أنه حقيقة تاريخية ، وننتهى إلى النتيجة الواضحة ، وهى أن مسرحية السحاب الساخرة كانت معروفة لدى جميع الجهات يومئذ على أن المقصود بها هو الدعابة ليس إلا .(١)

ومن معرفتنا بحجم مدينة أثينا فى عصر بركليز ، وأحوال سكانها ، نستطيع بطبيعة الحال أن نكون على يقين من أن أى رجل نال من الشهرة فى مثل ذلك المجتمع ما ناله سقراط ، يستطيع أن يقال كل من كان مثله من البارزين . فلا نستطيع مثلا أن نشك فى أن سقراط قد عرف أشخاصا مثل سوفوكليز Sophocles ، وهيرودوت Heredotus ، وفيدياس Phidias ولكن لا يجدينا شىء أن نضرب فى تأملات عن علاقاته بمثل أولئك العظماء من معاصريه ونحن لا نملك أية معلومات محددة على الإطلاق .

= أرستوفان فى المحاورة هو أن يشفى غله من الرجل الذى اعتبره بحق مسئولا عن مقتل سقراط بالتشهير به ووصفه بأنه عربيد شرير (حامح) . ويخيل لى مع احترامى الشديد لروبين أن هذا سوء فهم لجملة بسيطة واحدة هى تلك الجملة التى وصف فيها فن أرستوفان بأنه كله متعلق بديونيسيوس وأفروديت (المأدبة ١٧٧ هـ) فديونيسيوس يذكر هنا على أنه حامى الفن المسرحى وأفروديت — فيما أرى — تذكر لإشارة إلى ارتباطها بالجمال ، وهو لإطراء « للسحر » الذى هو أصدق سمة فى شعر أرستوفان .

(١) لقد جعل أفلاطون سقراط يقول هذا القول فى محاورة الدفاع ذاتها (١٨ د) حيث يميز تمييزاً واضحا بين الشعر والشعراء الهزليين أنفسهم ، وغيرهم ممن يردد عباراتهم الساخرة « غيظا منى وتشويها لحقيقتى » .

الفصل الثالث

المرحلة الأخيرة من حياة سقراط

محاكمته وموته

إذا كانت المحاولة التي بذلناها لكي نكون صورة جديدة عن حياة سقراط في فترة نعلم عنها أقل مما نعلمه عن أية فترة أخرى ، أقول إذا كانت تلك المحاولة ناجحة فعلينا أن نتخيله حتى بلوغه الأربعين من عمره واحداً من أبرز «العقول المفكرة» في عصر عظيم يتسم بحركة موّارة من الناحية الفكرية والخلقية ، يمتاز — في الدوائر التي تهتم اهتماما خاصاً بالأمور العقلية — باهتمام شديد بالنظام الخلقي الذي يخفى على الناس ، وعقيدة دينية ليست شائعة في المجتمع المحيط به : عقيدة في الله وخلود الروح . كما يمتاز بنظرة أصيلة إلى أبعد حد ، في طبيعة المشاكل الفلسفية والوسائل التي ينبغي أن تُتَنَاوَلَ بها ، وكان من الطبيعي أن يبدو في نظر الجماهير رجلا شاذاً مسليا ، يمزج بين حذلقة المتعالم ، تعجبه المفارقات ، وحرية الفكر ، والعرافة ، وهو الطابع الذي وسمته به مسرحية السحاب لأرستوفان . وعلينا الآن أن نصف كيف أدى نشاطه الجديد في التبشير برسالته للناس جميعا مع اختلاف ظروفهم وأوضاعهم ، وهو النشاط الذي كان يمارسه في خلال «حرب عالمية» ظل ضغطها يشتد على أثينا

تدريجيا حتى وصلت بها إلى صراع لا هدف له إلا مجرد البقاء . . كيف أدى هذا النشاط إلى توتر متزايد بين هذا « النبي » وجمهرة المواطنين العاديين الذين لا يضمرون له السوء ، ثم أدى فى النهاية إلى إدانته بتهمة انصرفت فى الواقع إلى خيانة الواجب الوطنى أو عدم الولاء لروح الحياة الأثينية . ولا ينبغى بطبيعة الحال أن ننسى أنه على الرغم من أن المعركة الطويلة بدأت فى صورة حرب من أجل الاحتفاظ بإمبراطورية قوية ، وعلى الرغم من أن أثينا — عند توقيع « صلح نيقية » (٤٢١ ق . م) الذى أخر اندلاع الحرب سنتين أو ثلاث سنوات — كانت ما تزال رغم كل شىء هى الظاهرة على كل المدن الهيلينية . . فإن السنوات الأخيرة من المعركة ، وخاصة بعد الفشل الذريع الذى منيت به المغامرة الأثينية الكبرى ضد سيراقوسة (فى عام ٤١٣ ق . م) ، قد شهدت المدينة الإمبراطورية تقاتل « قتال المستميت » ، وانتهت بالانهيار الكامل للنظام الخلقى والسياسى والاقتصادى القديم . وقد كان الديمقراطيون القصار النظر برغم حسن طويتهم يعيشون فى أحوال تختلف تمام الاختلاف عن أحوال الدولة الديمقراطية الآمنة القوية — المتسامحة بسبب ذلك — التى تصفها « خطبة الجنازة » لبركليز كما روى عنه توسيديد Thucydid

وقليل ما سجل عن الأحداث الخارجية فى حياة سقراط خلال السنوات العشر الأولى من هذه المعركة ، السنوات التى استغرقتها الحرب فيما عدا وقائع قليلة تتعلق بحسن بلائه فى القتال . ولكن لا بد أن تكون هذه الفترة التى شهدت زواجه من الزوجة الوحيدة التى عرف عنه أنه

بنى بها ، وهى كسانثيبا Xanthippe ، حيث إننا نعلم من أفلاطون أنه عند وفاته ترك ولداً واحداً كان عندئذ فتى ، أى لا يزيد عمره عن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، وصبيين صغيرين يبدو أن أصغرهما طفلا فى حضن أمه[1] . ويوحى اسم كسانثيبا وكذلك اسم ابنها الأكبر والأصغر ، بكرم المحتد . وقد صور كتّاب التراجم السكندريون كسانثيبا فى صورة المرأة النمرة ، ذات مزاج حاد لا يحكم ولسان سليط . ولكن لا توجد إشارة واحدة من هذا النوع فى كلام أفلاطون . وفى محاورة أفلاطون — وهى المكان الوحيد الذى يذكرها فيه أفلاطون — تبدو ببساطة فى صورة الزوجة المحبة ، يلتقى بها سقراط لقاء طويلا لآخر مرة فى حياته قبيل مقتله مباشرة . ولا يذكر عنها زينون عنها شيئاً أكثر من أن ابنها الأكبر كان يرى فيها — كما هى عادة الأبناء — أماً صالحة صبوراً محتملة[2] وأنه كان من الظاهر أن أنتسثنيس لا يحبها . فالمفهوم - إذن — أن سقراط لم يعقد هذا الزواج إلا فى منتصف حياته وللسكندريين قصة تقول إنه كان له زوجة أخرى تدعى مورتو Myrto ، قيل إنها ذات قربى بأرستيدس العظيم . ولكن قصصهم عن مورتو متناقضة . فهم يجعلونها أحياناً ابنة أرستيدس ، وأحياناً حفيدته ، ومرة هى زوجة سقراط الأولى ومرة

---

(١) اسم الولد الأكبر كما أثبته زينون هو « لامبروكليز Lamprocles » أما الصغيران فاسماها صوفرونيكوس Sophronicus ومنكسينوس Menexenus .

(٢) الذكريات ٢ ؛ ٢ ، حيث يلوم سقراط ابنه على نكران جميل والدته .

(٣) المأدبة ٢ — ١٠ ، ربما كانت هذه الكراهية هى السبب فيما تنشر من القول ضدها فيما بعد .

هى زوجته الثانية ، بل إنهم ليقولون أحياناً إنه كان متزوجاً بالاثنتين فى وقت واحد ـ والظاهر أن هذه من مخترعات أرسطوكسينوس Aristoxenus المولع بالتشنيع — ويزيدون فيقصون قصة سخيفة مؤداها أنه تزوج بزوجة ثانية استجابة لتشريع أثينى خيالى ، يعمل على تعويض ما نقص من السكان فى الحرب بإباحة الزواج من اثنتين[1] (من الممكن تاريخياً أن يكون سقراط قد تزوج مرتين ولكن صمت أفلاطون وزينون فى هذا الشأن يجعل الأمر غير محتمل الحدوث) .

وفترة الخدمة العسكرية التى قضاها سقراط بقدر ما تدلنا معلوماتنا ، ترجع ـ بصرف النظر عما يحتمل من اشتراكه قبل ذلك فى حصار ساموس بقيادة بركليز — إلى الحرب الأرشيدامية . ويروى أفلاطون أنه برز فى القتال بشجاعته الفائقة فى حصار بوتيديا (٤٣١ — ٤٣٠ ق . م) ومرة أخرى فى المعركة الخاسرة فى ميدان ديليوم Delium حيث فنيت القوة الأثينية كلها على يد البويطيين Boeotians ، وثمة معركة ثالثة أمام أمفيبوليس Amphipolis ذكرها أفلاطون[2] ويظن عادة أنها تشير إلى القتال الذى وقع خارج المدينة سنة ٤٢٢ ق م . وقتل فيه كلا من القائدين الأثينى والإسبرطى : كليون Cleon وبراسيداس Brasidas ، وإن كان الأستاذ بيرنت يرى أن الإشارة ربما كان مقصوداً بها القتال الذى صاحب تأسيس أمفيبوليس قبل ذلك بخمسة عشر عاما وواضح من أقوال أفلاطون أن

(١) فى هذا اللغو السكندرى انظر ديوجنيس ايرتيوس » ٢ : ٢٦ أثنايوس ٨ ؛ ٥٥٦ د .
(٢) الدفاع ٢٨ هـ .

سقراط كان راجح الكفة بشكل ظاهر في الشجاعة الحربية وحضور البديهة وهو يضع على لسانه في محاورة الدفاع[1] إشارة إلى سلوكه المثالى بوصفه جنديا ، يفخر فيها بنفسه ويحق له أن يفخر . وفي غير هذه المحاورة وضع أفلاطون تقريظا لسلوكه سواء أمام بوتيديا أم في ديليوم على لسان شاهد عيان له كفايته العظيمة . ففي «المأدبة»[2] بعد أن أثنى ألكبيادس على تحمل سقراط لكل شدائد المعركة القاسية ، وأورد قصة «الغيبوبة» العجيبة ، يسجل أنه حين جرح هو في أثناء القتال حماه سقراط ، ويقول إن نوط الشجاعة الذى منح له هو كان أحرى به أن يمنح للرجل الأكبر سنا . ويضيف أنه شهد حضور بديهة سقراط عند الانسحاب عقب الهزيمة من ديليوم ، وأنه قد فاق في سيطرته على نفسه القائد لاخس Laches رفيقه في الانسحاب . وفي محاورة لاخس[3] يجعل لاخس نفسه يروى القصة معقبا عليها بأنه لو كانت بقية القوة الأثينية قد سلكت سلوك سقراط لتحولت الهزيمة إلى نصر[4] . ومن الواضح أن أفلاطون يريدنا أن نفهم أن سقراط الجندى كان موضع تقدير رفيع من رجال الحرب المحترفين . وهذا يساعد بلا شك على تفسير الإعجاب الذى كان يحسه الشباب نحوه فيما بعد ، من الذين كانوا يطمحون إلى احتراف القتال مثل

---

(١) المرجع نفسه ، وفي الموضع نفسه .

(٢) ٢١٩ هـ وما بعدها (٣) ١٨١ ب

(٤) في « ديوجنيس ليرتيوس ٢ ؛ ٢٦ » يرد القول بأن سقراط قد أنقذ حياة زينون في ديليوم . ولكن لما كان زينون طفلا في ذلك الوقت بشكل تأكيد ، فلا بد أن تكون هذه الرواية غير دقيقة لقصة إنقاذ ألكبيادس في بوتيديا.

زينون ، « وشبح زينون الخيف » ميتون Meno التيسالى الذى أطلق أفلاطون اسمه على إحدى محاوراته .

وليس لدينا سجل لأية أعمال خاصة لسقراط فيما بين الانسحاب إلى ديليوم حتى السنوات الأخيرة من المعركة المتجددة ، حين كانت أثينا تقوم بمحاولتها الأخيرة لتفادى الهزيمة الكاملة . ولكن علينا أن نتذكر أن هذه السنوات بالذات — مابين ميثاق السلام الذى أبرم فى نيقيه ، وتجدد القتال الشامل مع احتلال الإسبرطيين لديسليا Decelea وهى موقع فى الأراضى الأثينية سنة ٤١٣ ق . م — هى السنوات التى لابد أنها كانت أخطر فترة بالنسبة إليه فى هذه السنوات كان الكبيادس قد أصبح الفتى المدال عند ذوى النزعة الاستعمارية من العسكريين الأثينيين ، وأوحى إليهم بذلك الحلم القاتل : حلم غزو سرقسه الذى أدى مباشرة إلى تحطيم أثينا ذاتها . وقد حدد تاريخ الاجتماع الذى عقد فى منزل أجاثون ، والذى يصفه أفلاطون فى «المأدبة» فى الجزء الأول من عام ٤١٥ ، فى الشهور السابقة مباشرة لإبحار الأسطول الأثينى الضخم وعلى رأسه الكبيادس قائد أرتيسيا . ووَصفُ أفلاطون للقائد الذى « أطارت لبه القحة والخمر » قد قصد به كذلك دون شك أن يذكرنا بالحالة التى كان الأثينيون غارقين فيها يومئذ من الثقة بالنفس التى تبلغ حد الاستخفاف[1] . وفى خلال شهور قليلة تغير

---

(١) لانستطيع بطبيعة الحال أن نتأكد من كون هـذه « الوليمة » حقيقية تاريخية ، وإن كنت أظن ذلك محتملا . وعلى أية حال فقد حرص أفلاطون على أن يوفق بين طابع وصفه وبين الحالة النفسية التى كانت قائمة وقتئذ .

الوضع بأكمله . فما كادت الأرمادا الضخمة تنشر قلاعها حتى كانت أثينا ترتج «بفضيحة دينية» ضخمة . فقد اتهم الكبيادس وكثير من رفاقه بأنهم قد اشتركوا مراراً في مسرحيات ساخرة تهزأ ببعض المقدسات «الايوزينية» التي هي جزء لا يتجزأ من الديانة الرسمية للدولة. واستدعى الكبيادس على عجل ليحضر محاكمته، وفر وهو في طريقه إلى الوطن ، وحكم عليه بالإعدام في غيبته ، هو وعمه Axiochus ، الذي كان هو أيضاً عضواً في حلقة سقراط وعدد كبير آخر من البارزين يشمل كما هو ظاهر كثيراً من الذين أورد أفلاطون أسماءهم في روايته عن وليمة أجاثون الحمراء [1] .

وقد اتخـــذ الكبيادس طريقه إلى إسبرطة وأصبح لتوه أكبر عدو للديمقراطية التي كانت تعبده من قبل . وقد كانت نصيحته هي التي تسببت — حين جدد الإسبرطيون القتال — في أن يتخذوا خطوة غيرت طابع الحرب كلها ، وهي إقامة موقع محصن دائم على الحـــدود الأثينية . ولقد أصبح الكبيادس الآن خائناً علانيــةً ، كما كان محكوما عليه بالإعدام ، وحالة به لعنة الدين من أجل تدنيس المقدسات ، ولا بد أن يصبح سقراط في أذهان كثير من المواطنين الذين يقام لرأيهم وزن ، ملوث السمعة بمسئوليته عن

(١) أكمل عرض للفضيحة كلها — وهي بطبيعة الحال رواية مغرضة من جانب واحد — هي التي يرويها الخطيب أندوسيدس Andocides وقد كان أحد الذين وجه إليهم الاتهام ثم انقلب شاهداً في خطبته عن « الأسرار الدينية » وليس من المعقول أن تكون مجرد مصادفة أن ثلاثة من المتهمين يحملون نفس الأسماء التي نجدها في محاورة المأدبة ، وهم فيدروس Phaedrus وأريجزيماكوس Eryximacus (وكلاهما يشترك في الحوار) وأكيومينوس Acumenus والد الأخير .

الأعمال الشائنة التى ارتكبها رجل مفروض فيه أنه «تلميذه» وصحيح أنه بعد فشل الانقلاب الموجه ضد الديمقراطية سنة ٤١١ — الذى أطلق عليه اسم «حكم أوليجاركية الأربعمائة» أخذ الكبيادس يعمل لصالح مواطنيه بدلا من العمل ضدهم ، وأنه استدعى بالفعل للرجوع إلى أثينا — فترة من الوقت فى ثياب النصر (٤٠٧ ق م) ولكن الشعور الشعبى الموالى له سرعان ما تحول ضده ، وعاد مرة أخرى إلى النفى وإلى سوء السمعة ، حين برز سقراط — للمرة الأولى فى حياته — عاملا على مسرح الحوادث العامة .

كان ذلك فى خريف سنة ٤٠٦ ق.م . وكان الأثينيون قد أحرزوا إبان الصيف نصراً بحرياً باهراً على مقربة من أرخبيل «أرجينوزا» بين ليزيوس والأراضى الآسيوية ، أنقذهم فى اللحظة الأخيرة من هزيمة فاصلة ، وإن كلفهم النصر خسارة خمس وعشرين سفينة وحياة أربعة آلاف رجل ، رؤى أنه كان من الممكن إنقاذهم لولا إهمال القواد الشائن ، حتى تقررت محاكمتهم عن ضياع هذه الأرواح وفقا لإجراءات الايسانجليا الأثينية Eisangelia[1] .

وطلب المدعى أكثر من ذلك أن يقرر مصير القواد الثمانية جميعا ، بعملية تصويت واحدة . ولما كان هذا خرقا صريحا للإجراءات الدستورية المتبعة ، فإن هيئة الرئاسة (prytanes) الذين تتكون منهم هيئة

(١) ويعنى ذلك أن القضية لا تنظرها هيئة من المحلفين المؤدين اليمين وإنما تطرح للتصويت العام فى مؤتمر المواطنين وهى بذلك أشبه بقانون « Bill of attainder » .

المكتب التى تعد جدول الأعمال لمجلس الشيوخ ذى الخمسمائة عضو ، وترأس الجلسة ، قد اتخذت موقفاً مشرفا حين احتجت على هذا الإجراء احتجاجا شديداً وقررت أنها لن تطرح للتصويت العام مثل هذا الاقتراح غير القانونى . وبالرغم من أن « هاتف » سقراط أوحى إليه ألا يعرض رسالته للخطر بالتدخل فى السياسة فإن ذلك لم يمنعه من خدمة المدينة إبان محنتها الشديدة ، بترشيح نفسه لمجلس الشيوخ . وغدا — حينئذ كما شاء له حظه — عضواً فى لجنة الرئاسة (Prytanes) . وبعد مناقشة طويلة حامية انهارت مقاومة أعضاء الرئاسة الآخرين أمام تهديد المدعين بأن يضعوا أسماءهم هم أيضا فى قائمة الاتهام . وبقى سقراط ثابتاً لا يتزحزح وإن لم يكن لاعتراضه وحده كبير جدوى وحوكم القواد وحكم عليهم بالإعدام جميعا ، ونفذ الحكم فوراً فى ستة منهم كانوا فى متناول أيديهم وخول لسقراط أن يروى القصة — كما حدث منه عند محاكمته — برهاناً على تماسكه الواضح وإيمانه دون خوف بالعدالة[1] .

---

(١) يصف أفلاطون هذا الموضوع فى محاورة « الدفاع » ٣٢ ب — ج ويروى زينون تفاصيل المحاكمة كاملة فى كتابه هيلينكا ١ : ٨ Hellenica ويحتمل أن يكون أفلاطون — وربما زينون أيضا — شاهدى عيان لإجراءات المحاكمة . ولا يوجد فى روايتهما ما يدل صراحة على ما إذا كان أعضاء هيئة الرياسة قد سحبوا اعتراضهم فى مجلس الشيوخ أو فى الاجتماع العام للمدينة ، وبالرجوع إلى ما يقوله زينون فى مذكراته (Memorabilia) تراه يذكر أن سقراط كان رئيساً للجنة الرئاسة فى حين أنه لا يذكر شيئا من هذا فى كتابه هيلينكا وهو أكبر تفصيلا كما لا يذكره أفلاطون أيضا . وإن كانت من المحتمل أن تكون ذاكرته قد خانته كما خانته حين ذكر أن عدد المدانين من القواد الذين حكم عليهم بالإعدام كانوا تسعة، فى حين أنهم كانوا ثمانية . أعدم منهم ستة فعلا . =

وفى تلك الشهور التعيسة من عام ٤٠٤/٣ التى تلت استسلام الأثينيين إلى ليساندر Lysander سنحت لسقراط الفرصة لأن يثبت أنه لا يخشى حكم العصبة الأوليجاركية المتآمر أكثر مما يخشى حكم الرعاع .

وقد سلم الأثينيون عن حصافة منهم وحسن تقدير الأمور . ولم يكن لدى الإسبرطى الفظ الذى جعلت منه مقادير الحرب — أو ربما خيانة القائد الأثينى — سيدأ الموقف ، أية نزعة لاتصال الحكم الديمقراطى ، وتحت ضغط ليساندر تم تكوين لجنة من ثلاثين عضوا زودت بتعليمات لوضع تشريع لحكومة المدينة المقبلة ، ولكنهم لسوء الحظ بدلا من أن يقوموا بما نيط بهم ، أقاموا من أنفسهم بالقوة حكومة أوليجاركية ثورية حملت أكثرهم محافظة على الديمقراطية على ترك المدينة إلى ثغر بيروس فزاولوا حكما استبداديا واقترفوا من أحكام الإعدام ومصادرة الأملاك دون وازع ، ما لطخهم بالعار ، حتى طردوا منها قهراً وعادت الحياة الديمقراطية إلى مجاريها خلال عام ٤٠٣ .

وكان من نحس الطالع لسقراط أن اثنين من أصفيائه كانوا ممن ارتكبوا هذا العار ، وهما أقريثياس ابن عم والدة أفلاطون ، وكان يتزعم الفريق الأكثر عنفا فى لجنة الثلاثين ، ثم خرميدس شقيقها وكان

= أما الإشارة التى وردت فى « جورجياس » ومؤداها أن سقراط كان رئيسا لمثل تلك اللجنة وارتكب خطأ فنيا بأن أعطى صوته عند أخذ الرأى ، فمن المحتمل أنها تشير إلى حادث آخر سابق (جورجيا ٤٧٤ ا) ومن المؤكد أن الإنسان كان يستطيع أن يكون عضوا فى مجلس الشيوخ الأثينى أكثر من مرة . انظر تفاصيل هذه القضية العظمى فى كتاب جروته Grote المسمى « تاريخ الإغريق » ، ج ٤ ، ٦٤ .

من أعضائها الأساسيين كما كان هناك من المظاهر ما يوحي — كما في حالة الكبيادس — بأن سقراط «مرب الخونة»(١).

ولم يكن هو نفسه — على الرغم من تقديره الكامل للحكم الدستوري — يميل إلى ذلك اللون من الديمقراطية، الذي برز بعد وفاة بركليس، وعلى العكس من صديقه القديم شريفون، لم ير داعياً لترك أثينا حين هجرتها طلائع الديمقراطيين إلى بيروس، ولكن هؤلاء السادة الذين زالوا سريعاً قد عرفوا جيداً أنه من المؤكد أن ينتقد سقراط إجراءاتهم بنفس الحدة التي اعتاد أن يعبر بها عما يجول بخاطره في المسائل العامة، فانتهزوا فرصة تعليقه اللاذع على أول أحكام الإعدام غير القانونية التي نفذوها(٢) ليستدعوه إلى حضرتهم ويأمروه بالامتناع عن التحدث إلى الشباب، بحجة أن ذلك يخالف أحد مراسيمهم التي تحرم تعليم فن القول. فرد عليهم سقراط بعبارات تتسم بذلك الطابع الساخر الذي يتميز به، مبيناً استحالة إطاعة هذا الأمر، فأمر بالانصراف بعد أن هدده

---

(١) من الإنصاف أن نتذكر أن هؤلاء الرجال، ربما «فقدوا صوابهم» تحت تأثير المكانة الجديدة التي وجدوا أنفسهم فيها. فإن أقريتياس — وكان واحدا منهم عرف من قبل كشاعر واسع الثقافة تحدوه ميول ديمقراطية واضحة. وإذا كان لنا أن نثق في زينون — ولو أنه كان أصغر سنا من أن يلم بهذه المعلومات بنفسه — فإن سقراط كان أول من شجع خرميدس على أن يتغلب على خجله الطبيعي ويلج ميدان السياسة. (الذكريات، ٣ ؛ ٧ ؛ ١).

(٢) قال إنه لم يعرف في حياته قط راعيا يفاخر بمهارته في إنقاص عدد قطيعه (زينون ؛ ذكريات، ١ ؛ ٢ ؛ ٣٢).

أقريثياس(١) . ثم كانت خطوة أخرى من خطوات التهديد والقمع أخطر من كل ما سبق ، حين حاولوا أن يشركوا سقراط نفسه في إحدى عمليات القتل هذه ، فقد تلقى أوامر عاجلة مع أربعة آخرين بالقبض على ليون السلاميسي Leon of Salamis وهو أحد الأثرياء الذين انتووا مصادرة أملاكه . فنفذوا الأمر وأعدم ليون على الفور ، إلا سقراط فإنه ذهب توا إلى منزله متوقعا أنه سيدفع حياته ثمنا لعصيانه ، لولا الثورة المضادة التي عصفت بالإرهاب(٢) وقد كان اتصال سقراط « بالخونة » هو الذي دعا الزعماء الذين أعادوا الديمقراطية لأن يقدموه للمحاكمة سنة ٤٠٠/٣٩٩ ، وكان الموت قد سبق إلى كل من ألكيبيادس وأقريثياس ، إلا أن الديمقراطيين لم يحسوا بالأمن ، والرجل الذي كانوا يتصورون أنه مصدر الوحي لخيانتهما مايزال صاحب نفوذ في الحياة العامة . ويبدو أن الدوافع التي كانت تحرك أنيتوس بن أنثيميون Anytus of Anthemion — وهو المحرض على إجراء المحاكمة — لم تكن دوافع تافهة ، كما أنه لم يكن من ذوي التعصب السياسي أو الديني . في السياسة كان ديمقراطيا معتدلا ، كما كان هو العامل الرئيسي في إصدار العفو العام الذي شمل الفرق المتصارعة بعد سقوط « حكومة الثلاثين » . وقد برهن على ولائه له برفضه السعي إلى أي تعويض عن الخسائر الشخصية الجسيمة التي وقعت

(١) كان هذا كما يقول أفلاطون — إجراء متبعا عند حكومة الثلاثين ، فقد كانوا حريصين على حماية أنفسهم من يوم يحاسبون فيه ، فحرصوا على إشراك أكبر عدد من الأشخاص في جرائمهم .

(٢) أفلاطون . الدفاع ، ٣٢ هـ — د

فى فترة الاغتصاب . ولم يكن ذا عصبية دينية ، إذ أنه فى السنة ذاتها التى كان يعاون فى إقامة الدعوى على سقراط بتهمة الإلحاد والزندقة ، كان كذلك يعاون فى الدفاع عن الخطيب أندوسيدس Andocides الذى كان حينئذ مقدماً للمحاكمة بنفس التهمة . ولم تكن لديه أية شهوة لإراقة الدماء . بل كان الغرض من طلب إصدار الحكم على سقراط بالإعدام هو إقناع سقراط بأن يطالب لنفسه النجاة بالانسحاب إلى المنفى ، فيصدر الحكم غيابياً نتيجة تخلفه عن الحضور[1] . وقد برز هنا سؤال يقول : لماذا تأخرت إقامة الدعوى على سقراط إلى السنة الرابعة بعد إعادة الحكم الديمقراطى ؟ وبيان ذلك أن الثورة ، والثورة المضادة التى تلتها سنة ٤٠٤/٣ ، قد أشاعت الاضطراب والفوضى فى الأعمال العادية فى دور القضاء . وكان لابد من مراجعة مجموعة القانون الأثينى كلها وتدوينها ، ولم تنته اللجنة التى نيط بها هذا العمل من مهمتها حتى سنة ٤٠١/٤٠٠ . وهذا هو السبب فى أن الدعوى المقامة على سقراط لم يتمكن من النظر فيها حتى سنة ٤٠٠[2] ، والواقع أن أنيتوس قام بحركته بمجرد أن تهيأت له الإمكانيات .

ولم يكن لسياسى ديمقراطى بارز مثل أنيتوس بطبيعة الحال أن يظهر بصورة المدعى الفعلى فى مثل هذه القضية ، فتركت هذه المهمة لشخص

---

(١) هذا هو معنى كلمات أنيتوس التى استشهد بها أفلاطون فى محاورة الدفاع ٢٩ ج والتى قال فيها إنه أمام أمرين إما ألا يواجه المحكمة على الإطلاق ، وإما أن يصدر حكم الإعدام حتما

(٢) انظر التفسير الكامل لهذه النقطة فى شرح بيرنت لأفلاطون فى محاورة أوطيفرون ٤ ج ٤ -

مغمور ، أصغر سنا من أنيتوس ، هو ميلتوس (وربما لم يكن هو الشاعر الذى يحمل هذا الاسم ، الذى ذكره أرستوفان فى مسرحية (الضفادع)، وإن كان من المحتمل أن يكون ابن ذلك لرجل) وكذلك كان المدعى ضد أندوسيدس فى تهمة « الإلحاد والزندقة » يدعى ميليتوس أيضا ، وكان أحد الذين قاموا بتنفيذ الاعتقال غير القانونى ليون Leon . وقد حفظت لنا المجموعة المنسوبة لليزياس Lysias مايبدو أنه نص الحديث الذى أدلى به ميليتوس ضد أندوسيدس ، وهو كلام لايصدر إلا عن رجل شديد التعصب للدين . فإذا كان هو — وهو الاحتمال القوى — نفس الرجل الذى أقام الدعوى ضد سقراط ، فهذا يفسر على الفور لمـــاذا اختير « الإلحاد » بالذات ليكون هو الاتهام الرسمى. فى هذا مايكفل أن يصدر الشخص الذى تذرع به للوصول إلى هدفه عن باعث يحفزه على عمله ، وأن اسوأ مافى سلوك أنيتوس أنه — لكى يصل إلى هدف يعتقد أنه سيكون سليم العاقبة — قد تذرع برجل كان ينبغى أن ينال احتقاره . أما دوره هو فى إجراءات المحاكمة فقد اقتصر على الإدلاء بخطاب رسمى يؤيد فيه الاتهام . وقام بمثل هذا الدور متكلم ثالث هو ، ليكون ، Lycon ، الذى لايعرف عنه شىء سوى أن سقراط فى محاورة الدفاع الأفلاطونية يصفه بأنه « خطيب » محترف .

وإذ كانت التهمة التى استقر العزم على توجيهها إلى سقراط ، تعتبر من الوجهة القانونية اعتداء موجها ضد دين الدولة الرسمى ، فقد كانت القضية من نصيب أحد الرجال الرسميين ، وكان يطلق عليه فى أثينا لقب

« الملك » ، وهو ثانى تسعة من القضاة يعينون كل سنة ويطلق على مجموعهم لقب « archons » إذ كانت مسائل الدين واقعة فى اختصاصه . وكانت مهمته فى المقام الأول أن يتأكد من أن قرار الاتهام قد وضع فى الصيغة القانونية الصحيحة ، وأن يدرج رد المتهم على قرار الاتهام ، ويأخذ إقرارات الشهود من كلا الجانبين [١]. ثم عمل الترتيبات الأولية الأخرى لتقديم القضية أمام هيئة من المحلفين . وفى أثناء المحاكمة كان على «الملك» أن يشرف على الإجراءات كلها، ولكن من المهم أن نتذكر أنه لم تكن له وظائف القاضى فى المحكمة الإنجليزية (مثلا) فلم يكن له أن يعلق على الإثباتات المقدمة للمحكمة ،ولا أن يستبعد شيئاً من الموضوعات التى يقدمها أحد الفريقين بوصفها غير متصلة بموضوع القضية. أما المحلفون فقد كانوا فى آن واحد «قضاة فى شأن القانون» و «قضاة فى شأن الوقائع» كما كانوا هم القضاة بشأن مدى صلة الإثباتات المقدمة بموضوع القضية . وإذا كان هؤلاء المحلفون هيئة كبيرة — إذ يبدو أن سقراط كما سنرى فيما بعد، قد حوكم أمام محكمة مكونة من . . ٥ شخص-يعينون لنظر القضية التى ينتدبون لها بالاقتراع عند بدء السير فى إجراءات القضية .ويجرى الاقتراع بطريقة سرية ، فقد كانت المحاكمة أمام مثل هذه المحكمة تعتبر فى الواقع محاكمة

---

(١) لم يكن الشهود يسألون أو يستجوبون فى قاعة المحكمة . وإنما كانت الشهادة عبارة عن تسجيل كتابى للاقرارات التى أخذت فى الأدوار التحضيرية ، ولم يكن فى الإمكان إدخاله موضوعات جديدة فى الدعوى ولكن كان يسمح لكل فريق أن يوجه الأسئلة للفريق الآخر، وكان يتحتم الإجابة عن هذه الأسئلة .

أمام «اجتماع عام» . وينبغى أن نكون على بينة من هذا الأمر ونحن نقرأ وصف أفلاطون للدفاع .

ولسنا ندرى بطبيعة الحال ما إذا كان الاتهام الموجه إلى سقراط فى الأصل الذى صاغه ميلتوس ، إذ أن السجل الرسمى لن يحفظ إلا الصورة النهائية التى وضعها « الملك » لتقديمها للمحكمة للفصل فيها . وفى محاورة أوطيفرون الأفلاطونية التى يرجع تاريخها إلى فترة الإجراءات التمهيدية، وضع أفلاطون على لسان سقراط قوله إن ميليتوس يتهمه بأنه « صانع آلهة جديدة » [١] . ولكن ليس ثمة شىء من ذلك فى الروايات المختلفة لنص قرار الاتهام الذى اختير فى المحاكمة الفعلية . وربما كانت أدق رواية لهذا النص هى التى وردت فى كتاب ديوجنيس ليرتيوس Diogenes Laertius [٢] ، والتى يبدو أنها صورة طبق الأصل للوثيقة الحقيقية التى كانت ما تزال محفوظة فى القرن الثانى الميلادى — « إن ميليتوس بن ميليتوس المنتمى إلى محلة بتثوس Pitthus يتهم سقراط بن

(١) أوطيفرون ٣ ب . المفهوم أنه إما أن يكون « الملك » قد رفض تقديم إقرار الاتهام فى هذه الصورة وإما أن أنيتوس أقنع ميليتوس أن تخفف التهمة بحيث تصبح اتهاما غير محدد « باستحداث طقوس دينية جديدة » .

(٢) ديوجنيس ليرتيوس ٢، ٤٠ ؛ المرجع الثقة المشار إليه هو فيفورينوس Favorinus الأرليسى (of Arles) وهو باحث مدقق عاش فى عهد هادريان Hadrian ، ويبدو أنه رأى الوثيقة الأصلية . ويتفق أفلاطون وزينون معه فيما يتعلق بجزئيات الاتهام ، ولكن أفلاطون يضع تهمة « لإفساد النشء » فى المقدمة ، وربما كان ذلك بسبب أنها التهمة التى عنى سقراط بمعالجتها عناية جدية فى دفاعه .

صوفرونيسكوس المنتمى إلى محلة ألوبيس Alopece ، ويقسم اليمين على صدق اتهامه ، بما يأتى : إن سقراط — أولا — لم يعبد الآلهة التى تدين الدولة بعبادتهم : ثانيا — أضاف إلى ذلك إفساد النشء . ويطلب المدعى توقيع عقوبة الإعدام [١] » .

وينبغى أن نكون على حذر من أن نسىء فهم أى من فقرتى الاتهام . فمن المؤكد أن التهمة الأولى لا تعنى أن سقراط يعتنق ما نسميه « أفكارا إلحادية » ، ولا تعنى أنه لا يؤمن بقصص الأساطير التقليدية (التى كانت شائعة يومئذ) كما يكثر من الإقرار فى محاورات أفلاطون أنه لا يؤمن بها . فقد كانت ديانة الدولة الأثينية فى مجموعها مسألة عبادة ، ولم يكن لها عقائد إلهية ولا كتب مقدسة . ومن المؤكد أنه لم يكن من قبيل الاعتداء على الدين ألا يؤمن الإنسان بأساطير هوميروس والشعراء الآخرين ، وكان الاعتقاد الشائع فى هذا الشأن أن الشعراء قد اخترعوا قصصهم لتسلية قرائهم [٢] . وواضح كذلك أن تهمة ابتداع عبادات جديدة ، ليس لها

(١) كانت القضية من نوع شائع فى الإجراءات الأثينية ، حيث كان المدعى يطلب عقوبة ما والمتهم — إذا ثبتت عليه التهمة — يطلب عقوبة أخرى أخف ، وكان على المحكمة أن تطبق أحد الاقتراحين ، ولكن ليس لها أن تتخذ خطا وسطا من جانبها . والمفهوم من ذلك أن الجانى فى مثل هذه الحالة يفترض أن يتقدم باقتراح معقول .

(٢) لقد جعل يوريبديس ، هـ، قل يسفه كل الأساطير بوصفها « خرافات بائسة وضعها الشعراء المجولون » على مسرح المأساة ذاته (H. F. , 1346) . أما نظرية الدكتور فيرال Verrall القائلة بأن الشاعر كان معرضاً للاستشهاد من أجل ذلك فقول لا يعتمد على سند من التاريخ . ويؤكد إيسوقراط Isocrates أن المآسى التى لقيها هؤلاء الشعراء (هوميروس ، وستيسكوروس Stesichorus وهسيود ، وأورفيوس) تعزى إلى قصاص =

علاقة على الإطلاق « بالعلامة الخارقة للطبيعة » عند سقراط . فبالنسبة للأثيني العادي لم تكن هذه العلامة تعني شيئاً أكثر من أنها حالة « الغيبوبة » المعروفة وواضح كذلك من محاورة « الدفاع » الأفلاطونية [1] أنه لم ترد أية إشارة إلى هذه المسألة في المحكمة إلى أن أثارها سقراط بنفسه . والواقع — كما يصوره أفلاطون — أنه لم يكن ثمة أحد ، ولا المدعي نفسه يعلم ما يعنيه ذلك القسم من الاتهام . ولكننا إذ قرأنا ما بين السطور ، استطعنا أن ندرك من محاورة الدفاع الأفلاطونية ما كان يدور في رأس ميليتوس ، كما ندرك كذلك لماذا لم يستطع أن يبين عما في نفسه .

ونجد سقراط — في محاورة أفلاطون — يتناول الاتهام بطريقة عجيبة ، فهو لا يقول شيئاً على الإطلاق لينفي الاتهام « باستحداث ألوان

= السماء العادل منهم على ما جدفوا وهرطقوا . وقد كان أول من اقترح أن يعتبر اعتناق آراء خاطئة في مسائل الدين اعتداء على الدولة هو أفلاطون نفسه ، في الكتاب العاشر من محاورة « القوانين » .

(١) في محاورة الدفاع (٣١ ب) حيث تسنح الفرصة لسقراط أن يتحدث بنفسه عن « العلامة » يقول « من المفهوم أنها هي التي أعطى ميليتوس عنها صورة ساخرة في قرار اتهامه » . ولكن اضطرار سقراط إلى أن يقص القصة بنفسه هو ذاته دليل على أن ميليتوس لم يتحدث عنها . ولهذا يقال إن هذه « الصورة الساخرة » لم ترد في خطاب ميليتوس وإنما في قرار الاتهام . ويتحدث سقراط ساخراً فيتظاهر — كما يقول بيرنت (في المرجع السالف الذكر) بأنه قد اكتشف لتوه ما كانت تعنيه اللغة الغامضة التي كتب بها قرار الاتهام . ويلمح أوطيفرون المتعصب في محاورة « أوطيفرون » الأفلاطونية إلى أن « العلامة » ربما كانت هي ما عناه ميليتوس حينما نعت سقراط بأنه « صانع آلهة جديدة » أما زينون — ولا شك أنه قد قرأ هذه المحاورات — فهو يردد الإشارة (الذكريات ، ١ ؛ ١ ؛ ٣) ولكنه لا يصنع ذلك إلا ليقرر أنه ليس ثمة شيء مما يتعلق « بالعلامة » يؤيد الاتهام بالزيغ والإلحاد .

جديدة من العبادة ، ويحتال على توريط ميليتوس لكى يفسر عبارته الخاصة بعدم عبادة آلهة الدولة بأن المقصود بها هو اتهامه بالإلحاد الصريح، وعندئذ يستطيع دون شك أن يدفع عن يقين بوجود تناقض بيّن بين شطرى الاتهام[1]. ومن اليسير أن نرى أن المسألة لا تزيد على كونها استخداما للدعاية فى الحدود المباحة لإسكات المدعى الذى لا يستطيع - أو لا يجرؤ على - تبيان حقيقة ما يقصـــد إليه . أما المعنى الذى يقصده فثمة إشارة إليه فى قسم سابق من محاورة «الدفاع» الأفلاطونية[2] ، حيث يقرر سقراط أن المدعى العام حين لم يجد شيئاً أكثر تحديداً يتهمه به ، قد رجع إلى قائمة الاتهامات المتداولة التى كانت توجه إلى طبقة «الحكماء» والعلماء عامة واعتمد على الصورة الهزلية التى رسمها له أرستوفان فى مسرحية «السحاب» بوصفه واحداً من هذه الطائفة (وكان قد مر على ذلك ربع قرن). والنقطة الهامة فى هذا الشأن هى أن العلماء الإيونيين قد درجوا على استخدام كلمة «إله» بطريقة لا علاقة لها بالدين إطلاقا ، يقصدون بها «الهواء» أو أى شىء آخر يعتقدون أنه المادة التى تتكون منها الأشياء . وهذا هو السبب فى أن أرستوفان قد جعل سقراط يقول بأن «الآلهة» ليست «عملة جارية» فى مدرسته ، ومثله يدرس لتلاميذه أن «الحركة اللولبية» خلعت زيوس Zeus عن عرشه ، ويقسم بطائفة من «آلهة من ابتداعه الخاص» هى

---

(١) الدفاع ٢٦ ب — ٢٧ ﮪ

(٢) الدفاع ١٨ أ — ١٩ د

الفوضى ، والتنفس ، والأثير ، والسحاب(١) ويقصد سقراط فى الواقع أن الاتهام « بالإلحاد » لا يستند إلى شيء أكثر من محاولة إثارة المحكمة ضده بتذكيرها بما كان العلم الأيونى القديم من سمعة سيئة (وربما كان ميليتوس أيضاً — وإن لم يكن ثم فى محاورة الدفاع ما يلقى ضوءاً على هذا الموضوع — قد اعتمد على أن يعيد إلى الأذهان الفضيحة القديمة التى أثيرت سنة ٤١٥ حول تدنيس المقدسات الدينية ، والتى شملت ألكبيادس وغيره من أصدقاء سقراط . بل إنه ربما كان قد اعتمد على احتمال أن بعض المحلفين كان يعرف من الماضى القريب أن سقراط كان على صلة بشبان من الفيثاغوريين المعجبين به ، من المدن التى لم تذهب عنها صفة الدول الأعداء ، إلا وشيكا جداً) . ويتضح الآن السبب فى أن المدعى لم يكن يستطيع أن يكشف عن خبيئة نفسه . فبمقتضى العفو العام الذى وضع حدا لاضطرابات سنة ٤٠٤/٣ ، لم يكن فى الإمكان محاسبة أى مواطن على الأخطاء التى ارتكبت قبل هذا التاريخ ، ولم يكن فى وسع القضاء أن ينظر فى أى اتهام مبنى على أعمال يقال إنها ارتكبت فى عهد سابق . فقد كان من مهمة أنيتوس حينئذ ، بوصفه الباعث الأول لإصـــدار هذا العفو العام ، أن يتأكد من أن شروطه لا تنتقض نقضاً صريحا .

والشطر الثانى من الاتهام وهو « إفساد النشء » أوضح فى مدلوله . والواقع أن المدعى وأعوانه فى أثناء المحاكمة قد تركوا مقصدهم غامضا .

(١) انظر أرستوفان — السحاب ، صفحات ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٨٠ ، ٦٢٧ وغيرها .

ونجد سقراط على الأقل كما يصوره أفلاطون — يقرر دهشته البالغة وحيرته بشأن الضرر الذى يتهم بإحداثه لأصدقائه ـ أى لون من الضرر هو؟ ويقول إنه لا يمكن أن يتهم بأنه يدرس لهم ذلك النوع من المراء عن العلوم الطبيعية ، الذى يجرى على لسانه فى مسرحية أرستوفان ، وبأنه يمارس مهنة السوفسطائيين المحترفين . فمن المشهور عنه لدى الناس جميعاً أنه لم يكن « معلما » محترفا ولم يكن له « تلميذ » قط . ولا يقل عن ذلك شهرة أن التأملات العملية التى يسخر منها أرستوفان ليست موضوع مناقشاته . ولو أن المدعين عليه كانوا مخلصين لكان عليهم أن يعترفوا بأن الضرر المزعوم الذى يصيب الشباب الذى يمتعه الاستماع إليه وهو يحاسب مواطنيه الحساب العسير ، هو فى الحقيقة كشف الجهالة البليدة المطمئنة إلى جهلها التى يمارسها شيوخهم . وإذا قرأنا ما بين السطور تبين لنا أن ما كان يغضب أنيتوس حقا هو أن نقد سقراط لضعف مقدرة السياسيين من أمثاله كان من شأنه أن يهبط بسمعتهم وينشىء فى رءوس المدققين من الجيل الناشىء اتجاها فكريا ناقداً ، ينتقدون به الديمقراطية ونظمها — وكان ذلك حقاً ولاشك(١). ونستطيع مطمئنين — أن نستنتج أنه لا بد أن كان هناك شىء أسوأ من ذلك يثير حفيظة المدعين ، ولكن لديهم من الأسباب ما يدعوهم إلى عدم الإفصاح عنه بالكلمات .

ونستطيع أن نزداد إدراكا لقصدهم الأساسى إذا قلبنا صحائف « الذكريات » التى كتبها زينون ، وهى دفاع عن ذكرى سقراط ، أمام

(١) الدفاع ١٩ د — ٢٠ ح ، ٢٣ ح — ه ، ٢٤ ح — ٢٦ ب

هجوم مكتوب ، أخرجه أحد « المدعين » . والظاهر أنه المعلم بوليقراط Polycrates وهو كاتب مغمور يبدو أنه سجل القضية التي رفعها أنيتوس وميليتوس في ثوب أدبي بعد المحاكمة ببضع سنوات . ويذكر زينون كذلك عبارة صغيرة أو عبارتين أساء فيهما هذا «المدعي» تصوير شخصية سقراط . فقد اتهمه بأنه يعلم الشباب الاستخفاف بالجيل السابق وعدم إعطائه ما ينبغي له من احترام ، وبأنه يستخرج معاني مفسدة للأخلاق من بعض مقطوعات الشعراء(١) . ولكن التهمة التي يهتم زينون اهتماما خاصاً بدحضها تتعلق بأمر أكثر تحديداً . فقد اتهم « المدعي » سقراط بأنه كان معلماً لاقريثياس وألكيبيادس . ويناقش زينون هذه المسألة مناقشة مطولة ، فيقول إن الأمر لم يزد على أن كلا منهما قد صاحب سقراط مصاحبة طويلة تكفي لأن يتعلما شيئاً من مهارته التي لا نظير لها في الحديث ، وقد أساءا استخدام هذه المهارة لتحقيق أغراضهما الخاصة(٢) .

---

(١) الذكريات (١ ؛ ٢ وأماكن أخرى متفرقة) . التهم التي يعالجها هي : تعلم الصغار عدم توقير آبائهم ، وانتقاد بعض النظم الديمقراطية كاستخدام القرعة في الاختيار للوظائف ، وتعليم ألكيبيادس ، وأقريثياس ، واستخراج معاني سيئة من أقوال الشعراء . وإذا كان سقراط في كتابات أفلاطون يعامل الشعراء بالسخرية ، وإذا كان كتاب «الدفاع عن سقراط» الذي أنه ليبانيوس Libanius — خطيب القرن الرابع الميلادي الشهير — قد احتفل احتفالا شديداً بهذه التهمة وهو كتاب مبني كما هو واضح على كتيب بوليقراط ، فمن المحتمل أن هذه النقطة الخاصة بالشعراء قد أثيرت في المحاكمة بوصفها جزءاً من القضية ، ويحتمل كذلك أن يكون سقراط قد قال بالفعل بعض ما نسب إليه من الطعن في أخلاق الشعراء .

(٢) الذكريات (١ ؛ ٢ ؛ ١٢) « قال المدعي إن شخصين من معارف سقراط قد سببا للدولة من الأضرار مالم يسببه أحد آخر . فقد كان أقريثياس أكثر رجال الحكم

وقد حال العفو العام الذى صدر سنة ٤٠٤/٣ دون إشارة إلى هذا التأثير المزعوم على « الخائنين الكبيرين » وقد حرص أنيتوس دون شك على أن يظل الاتهام غامضا . وهذا هو السبب فى أننا لا ندرك على الفور مغزى إصرار سقراط فى محاورة أفلاطون على القول بأنه لم يكن له قط «تلميذ» حقيق[1] . وقد أفصح بوليقراط فى كتيبه عن المعانى التى اضطر ميليتوس ـ بسبب الإجراءات القانونية ـ أن يلمح إليها مجرد تلميح . ونرى مما كتبه أيسوقراط أنه اتهم سقراط فى حديث مطول بأنه هو معلم ألكيبيادس . ويرد أيسوقراط بإنكار هذه الواقعة على النحو الذى أجراه أفلاطون على لسان سقراط[2] . وربما أنه قال الكلام ذاته عن أقريتياس ، وهذا يفسر السبب فى أن الخطيب أسكينس بعد ذلك بخمسين عاما قام يذكر الأثينيين فيقول لهم . «لقد أعدمتم سقراط لأنه كان معلما لأقريتياس»[3]

الاستبدادى فظاظة وعنفا وكان ألكيبيادس أكثر رجال الديمقراطية تحللا من قيود الأخلاق والمبادئ » . . وجاء بعد ذلك رد زينون بالتفصيل .

(١) الدفاع (٣٣ ا) « إننى لم أعلن قط أى رضاء آثم على هؤلاء الذين يقال خطأ إنهم تلاميذى ، ولا عن أى شخص آخر . ولم أكن قط معلماً لشخص كائنا من كان » . . إلخ . أما الأشخاص المعنون بقوله « هؤلاء الذين يقال إنهم تلاميذى » فليسوا هم أفلاطون وشباب عصره . فهؤلاء لم يتسببوا للمدينة فى ضرر يمكن أن يظن أن سقراط مسئول عنه . ونحن نعرف من أفلاطون نفسه (الرسائل ، ٧ — ٣٢٥ ب) أن الحكم على سقراط بالإعدام كان هو وحــده السبب فى عدول أفلاطون عن الاشتغال بالسياسة مدافعاً عن الديمقراطية المعادة .

(٢) إيسوقراط (١١ ؛ ٥) « إنك (يا بوليقراط) قد وصفت ألكيبيادس بأنه تلميذه ، مع أن أحداً لا يعرف أنه تعلم قط على يديه » .

(٣) أسكينس (١٧٣،١) لقد أعدمتم المعلم سقراط لأنكم اتهمتموه بأنه قام بتعليم أقريتياس

ولا يمكن أن ندرك دوافع الادعاء إلا إذا فهمنا أن أنيتوس كان حقا يعتبر سقراط وتعاليمه المسئولين عن الشر الذى أصاب أثينا على يد الرجل الذى عرّف الأعداء كيف يوجهون إليها الضربة القاضية، والرجل الذى كان هو القائد فى فترة الإرهاب التى تلت سقوطها . ولا شك أن الذى أثار ريبة أنيتوس هو ذلك اللون من النقد العنيف الذى ما فتىء سقراط فى محاورات أفلاطون يوجهه إلى المشاهير من ساسة الديمقراطية . ويكاد يكون من المؤكد أنه هو شخصيا قد ذاق الشعور بالهوان والضعة إزاء استجواب سقراط، ولكن السر الحقيقى فى العداوة كان أعمق من ذلك فالواقع أن سقراط لم يقم بتعليم الرجلين اللذين قاما بالدور الأكبر فى تحطيم المدينة التى ينتميان إليها ،ولكن حظه العاثر قد شاء له أن يكون صديقا لكليهما ، وكان مما لا محيص عنه أن يظن أنه لهما أكثر من صديق[١] .

وكان مما أثار دهشة الجميع أن سقراط لم ينف نفسه بمحض اختياره . بل بقى فى أثينا ينتظر فى هدوء محاكمته التى حدثت فى الربيع أو مستهل الصيف عام ٣٤٩ . ولا شك أنه كان يرى — من وجهة نظره الدستورية الصارمة — أنه من حق الدولة أن تنظر فى أمر أحد مواطنيها لتختبر أخلاقه ، وكان أبسط واجبات هذا المواطن أن يواجه الاختبار .

(١) نستطيع أن ندرك الوضع إدراكا أفضل إذا تذكرنا المطاعن الشديدة التى انهالت على أحد رجال السياسة من ذوى الميول الفلسفية فى أثناء الحرب العظمى الأولى ، على أساس كلمة عن « وطنه الروحى » يبدو أنها لم تصدر عنه أصلا .

وقد حفظ لنا أفلاطون دفاع سقراط عن نفسه . وكان حاضرا فى المحكمة . وتحمل هذه الخطبة من الخصائص المميزة ما يجعلنا نطمئن إلى أن رواية أفلاطون لها قد سجلتها بدقة فائقة [١] . ولم يكن سقراط حريصا على طلب الموت ، بل على العكس من ذلك طالب فى صراحة بتبرئة مشرفة ، بشرط واحد ، هو ألا تكون هذه التبرئة على حساب الحق [٢] وكان حريصاً وهو يتحدث عن صلته بالكيبادس وأقريتياس ، بما تفرضه عليه المحافظة على روح العفو العام ، فلم يقل شيئا وراء الحقيقة المجردة ، وهى أنه لم يكن فى يوم من الأيام « معلما » لأحد . وقال عن سوء الفهم الشائع بالنسبة لشخصه أنه بقايا من الصورة الساخرة التى صوره بها أرستوفان وغيره من الشعراء الهزليين . أما تهمة « استحداث شعائر دينية جديدة » ، و« إهمال عبادة الآلهة » ، فقد اكتفى بأن يبين أن ميليتوس نفسه لا يرغب — أو لا يقدر — أن يفصح عن قصده . وأما الزعم بأنه « مفسدة للشباب »

(١) إن الشكوك التى أثارها بعض الباحثين الألمان حول هذه النقطة فى وقت من الأوقات ترجع فى الواقع إلى افتراضهم أن الهدف الأول للشخص المتهم لابد أن يكون دائما « التخلص » بأى ثمن . وهذا قد يكون حقاً بالنسبة لمعظم الناس ، ولكنه لا يصدق على الناس جميعاً ، وهو أقل ما يكون صدقا بالنسبة لرجل كسقراط .

(٢) تلك رواية أفلاطون (الدفاع ١٩ ا) أما زينون فى « دفاعه » الذى كتب متأخرا عن « دفاع » أفلاطون فقد تملكته الحيرة التى تملكت بعض الألمان من أن الخطبة الأفلاطونية التى يتقبلها على أنها تسجيل صادق « لأسلوب سقراط الرفيع » لا تعتبر مقالة حكيمة من رجل كل همه أن ينال التبرئة . ومن ثم فانه يضع ذلك التفسير المضحك ومؤداه أن سقراط قد قصد عمداً إلى إثارة المحكمة لتحكم عليه بالإعدام ، لكى « يفارق » الحياة دون أن يعانى العمى وغيره من مساوئ الشيخوخة ! (زينون ، الدفاع ، ١ — ٨) .

فقد أخذه مأخذ الجد أكثر من سابقه، وإن كان مايزال أخذاً عابراً خفيفاً، واختار أن يرد عليه باستدعاء أقرباء أفلاطون الذين يكبرونه (أفلاطون) وغيرهم من الرفقاء صغار السن، ليثبت فساد هذا الزعم. ولو كان قصده — ولم يكن كذلك في الواقع — مجرد الوصول إلى البراءة بأي ثمن، لمضى حينئذ يسرد شيئاً عن ماضيه الحربي الممتاز، وتحديه الجريء لأفريثياس في شأن ليون السلاميسي، وهناك كان يمكن أن ينتهي الأمر. ولكن مثل هذا الدفاع كان يعد خيانة لرسالته، ومن ثم فإنه لم يقم بأية محاولة لتفادي النفور الشديد الذي كانت ترمق به الديمقراطية الأثينية المتشككة كل صيت ذائع يناله « المهارة » الفائقة. وجعل قصة العرافة — التي أعلنت أنه أحكم الناس — نقطة الارتكاز في حديثه كله، ويبين بلا خفاء ولا مواربة كيف أدت به إلى أن يأخذ على عاتقه مهمة إقناع الناس جميعاً بلا تفريق، من أول الساسة البارزين إلى ما دون ذلك، بما هم عليه من جهل شائن بالنوع الوحيد من المعرفة ذي الأهمية العظمى. وهو معرفة الطريقة التي يُصلح بها الإنسان روحه وأرواح الآخرين بقدر ما في طوقهم من صلاح. وقال إن القعود عن هذه الرسالة هو خروج عن طاعة الله، وإن المحكمة أن تتيقن أنه لا شيء إلا الموت يمكن أن يصده عن المضي فيها، وحتى أعماله الحربية الباهرة وموقفه في شأن ليون لم يوردها في خطبته إلا ليبين كيف كان من المستحيل إهمال القيام بواجبه الصريح. وقرن إلى قصة تحديه لأفريثياس تلك القصة الأخرى التي لا تقل عنها جرأة: قصة تحديه للديمقراطية ذاتها بشأن محاكمة القادة الأرجينوزيين. ومن ثم فلم يكن

من المستغرب أن تصل المحكمة إلى قرار الإدانة ولو أنه كان بأغلبية ضئيلة فإذا جعلنا فى اعتبارنا اللهجة التى استخدمها فى خطابته ، وأن المحكمين — لو أخذناهم بجميع الاعتبارات — كانوا يكوّنون مؤتمرا هاما ، فإن النتيجة التى وصلوا إليها يمكن أن تفسر بتحررهم الفكرى أكثر مما تفسر بأى شىء آخر [1] .

وكان على سقراط الآن أن يعرض توقيع عقوبة أخرى على نفسه بدلا من الموت . ولا بد أن كل إنسان قد توقع أن يعرض الإبعاد والنفى . ومن الجلى أنه لو فعل ذلك لرضيت المحكمة . ولكنه مرة أخرى كان وفياً لمبادئه ، وقال إنه يرى أن رسالته كانت خيراً ونعمة وهبها الله لأثينا ، وأن جزاءه يمكن أن يعترف به بأن تضفى عليه تلك المزية النادرة التى تمنح للفائزين فى ألعاب الأولمب ، وللقواد البارزين ، ولقلة أخرى من الناس ، وهى مقعد مدى الحياة على منصة الرئاسة (Prytaneum) . وإذا كانت هذه هى وجهة نظره ، فلم يكن ضميره ليسمح له أن يعرض توقيع أية عقوبة على نفسه أو أى شر حقيقى يحيق به ولكن فرض غرامة مثلا ليس شراً فى ذاته ، ما دام الإنسان يملك أداءها ، وقد قال سقراط إنه مرتاح الضمير إذ يعرض أداء مثل هذه الغرامة . ومن ثم

(١) نعلم من أفلاطون (الدفاع ٣٦ ، ١) أن الأغلبية فى صف الإدانة كانت ستين صوتا . وفى ديوجنيس ليرتيوس ٢ ؛ ٤١ يقال إن سقراط حكم عليه بأغلبية ٢٨١ صوتا زيادة على الذين صوتوا فى صف براءته . ولا بد أن ثمة شيئا من اللبس هنا . ويبدو من المحتمل (انظر حاشية بيرنت) أن المجموع الكلى للمحكمين كان ٥٠٠ وأن ٢٨٠ صوتوا بالإدانة ، و ٢٢٠ بالبراءة .

فقد عرض أن يدفع المبلغ الذى يملك أداءه فى الحال وهو « مينا » واحد[1] ، وأضاف لتوه أن أقريطون وأفلاطون وغيرهما من الأصدقاء قد حملوه على أن يرفع العرض إلى ثلاثين « مينا » ، وأنهم مستعدون لضمان هذا المبلغ . وكان من الطبيعى جداً أن ينفعل المحكمون غضباً من هذا الحديث القاطع فيصوتوا على الحكم بالإعدام بأغلبية أكبر[2] من تلك التى أصدروا بها قرار « الإدانة » .

وطبقاً لما يقوله أفلاطون وزينون كلاهما ، فإن سقراط قام عندئذ بتوجيه كلمات نهائية قليلة لتلك الأقلية من القضاة التى تكلمت فى صفه منذ البدء إلى النهاية . ولا يُجرى زينون على لسانه أكثر من إعادة ما سبق أن قاله من إعلان براءته ، مع زيادة طفيفة ، ولكن رواية

(١) لكى نحكم على قيمة هذا العرض ينبغى بطبيعة الحال أن نأخذ فى اعتبارنا القيمة الشرائية العالية للفضة فى ذلك الحين . ومن الظاهر أن « المينا » الواحد كان يعتبر فى المعتاد مبلغاً معقولا لفداء أسير فى الحرب . وكان مبلغ ثلاثين مينا كثيراً ما يرد على لسان الخطباء فى ذلك العصر على أنه مهر حسن لفتاة من أسرة متوسطة . ونجد أفلاطون بعد ذلك بجيل يتوقع أن تزف إليه ابنة عمه لقاء هذا المبلغ (ملحق القوانين ، ١٣ — ٣٦١ هـ) ويصر زينون (الدفاع ٢٣) على أن ينفى عن سقراط أنه تقدم أو سمح لأحد من أصدقائه أن يتقدم بمثل هذا العرض . وهو هنا يتعمد مناقضة أفلاطون ، ولا يستحق قوله أى اعتبار فقد كان أفلاطون حاضراً فى أثناء المحاكمة ، بينما كان زينون غائباً فى آسيا ، ومن الواضح أنه لا يدرك أن عرض سقراط أن يدفع غرامة ليس اعترافاً منه بأنه مدان .

(٢) بحسب ما جاء فى ديوجنيس ليرتيوس (٢ ، ٤٢) تزيد هذه الأغلبية ثمانين صوتا عن تلك التى صدر بها قرار الإدانة فاذا كان هذا حقا فينبغى أن تكون الأصوات ٣٦٠ إلى ١٤٠ (وليس كما يقول بيرنت متجاوزاً عما جاء فى « الدفاع » ٣٨ جـ أنها كانت ٣٠٠ إلى ٢٠٠) .

أفلاطون تضيف شيئاً أبرز من ذلك وأدل على شخصية سقراط . فهو يقول : إن الحكم الذى صدر عليه ليس شراً . فالموت على أسوأ الأحوال، ليس أكثر من راحة غير متقطوعة ، ومن ثم فهو ليس شيئاً رديئاً . ولكن هناك عقيدة أخرى — هى عقيدته الخاصة بلا خفاء — مؤداها أن الموت للرجل الصالح هو دخول فى حياة أفضل . وفى تلك الحال يمكن لسقراط أن ينعم بحياة المثول بين يدى القضاة الأتقياء الحكماء الذين يقضون بين الموتى ، والذين سينقضون دون شك قرار تلك المحكمة المتحيزة التى ينقصها العلم الصحيح بالأمور ، كما ينعم بسعادة اللقاء مع مشاهير الأيام الغابرة ، ومن بينهم أشخاص مثله حكم عليهم معاصروهم ظلماً وعدواناً . ولن يكون ثمة خطر هناك من أن يقطع عليه عمله فى استجواب رفقائه حكم آخر بالإعدام[1] . فإذا كان هذا هو المصير الذى

---

(١) فى محاورة « الدفاع » (٤١ ب) يذكر أفلاطون بالاميدس Palamedes نموذجاً للشخص الذى حكم عليه بالإعدام ظلما . ولقد كان مما يتنافى مع غرض زينون الدفاعى أن يسجل تلك العبارات التى تشى بأن سقراط يؤمن بعقيدة غريبة كل الغرابة على الأثينيين فى مجموعهم كالاعتقاد فى الحياة الآخرة . ومن ثم فان احتفاظه بالإشارة إلى بالاميدس على أنه نظير له (زينون — الدفاع ٢٦) تكون له دلالة كبيرة . وليس هذا دليلا قاطعاً على أن سقراط قد نطق بهذه العبارات ، مذ كان زينون بعيداً عن المحاكمة فى ذلك الوقت ، ولكنه يدل على أنه قرأ محاورة الدفاع الأفلاطونية وأخذها على أنها رواية صادقة لما حدث . وروايته هو لخطبة سقراط الأخيرة هى ذاتها رواية أفلاطون مع حذف ما يتعلق بالخلود . وكذلك فى نهاية محاورة سيروبيديا (٨ ؛ ٧ ، ١٧ وما بعدها Cyropaedia) حيث لا يبتغى غرضاً دفاعيا يضع على لسان سيروس المحتضر كلاماً عن الخلود شديد الشبه بما جاء فى محاورة « فيدون » الأفلاطونية . ولنا أن نستنبط بلا تعسف أنه — مثله فى ذلك مثل أفلاطون — قد ورث هذه العقيدة من أستاذهما الذى تتلمذ كل منهما عليه .

تسوقه إليه المحكمة فإنها — دون قصد منها — تسوق إليه أكبر خير يمكن أن يصل إليه .

وكان الإجراء المعتاد فى أثينا أن الذى يحكم عليه بالإعدام يساق فى التو إلى « الأحد عشر » الذين يناط بهم تنفيذ القانون ، وأن يجرى إعدامه خلال أربع وعشرين ساعة من صدور الحكم عليه . ولكن حالة سقراط كانت استثناءً من هذا الأمر . فقد كان هناك تقليد بأن يرسل سنوياً « زورق مقدس » إلى معبد أبولّو فى ديلوس احتفالا بذكرى تخليص أثينا على يد تيسيوس Theseus فى عصر ما قبل التاريخ ، من جزية السبعة الأولاد والسبع البنـــات ، التى فرضها عليها مينوس الكنوسوسى Menos of Cnosus وكانت المدينة تطهر تطهيراً دينياً قبل إرسال الزورق ، وكانت مراسم التطهير تحول دون تنفيذ أية أحكام بالإعدام حتى يعود الزورق من رحلته وقد حدث من قبيل المصادفة أن فترة التطهير الدينى هذه كانت قد بدأت سنة ٣٩٩ فى اليوم السابق لمحاكمة سقراط ، ومن ثم لم يكن بد من تقرير ما ينبغى أن يتخذ بشأنه (لم يكن من الممكن أن يبدأ النظر فى الأمر حتى يصدر الحكم بالفعل ، إذ لم يكن أحد بطبيعة الحال يتوقع أن يعرض سقراط فى حالة إدانته شيئاً آخر غير الحكم على نفسه بالنفى) ، وقد بذل الثرى أقريطون ما فى وسعه من جهد لإقناع المحكمة بترك سقراط حراً حتى يعود « الزورق المقدس » متعهداً بأن يقدم الضمان بأنه لن تبذل أية محاولة للهرب[1] . ولكن

(١) أفلاطون (فيدون ١١٥ د) لم يكن الحبس عقوبة توقع على المواطنين فى أثينا اللهم الا المدينين بأموال أميرية ، فكانوا يحبسون عادة حتى يوفوا بما عليهم من دين .

هذا العرض رفض . ومن ثم أرسل سقراط إلى سجن « الأحد عشر » حيث بقي مقيداً ببعض الأغلال ، وإن كان ذلك لم يمنع استمتاعه بصحبة أصدقائه كل يوم . وإذ تأخر الزورق شهراً[١] بسبب معاكسة الريح ، فقد انقضى ذلك الشهر كله في مذاكرات يومية ، ويبدو أن بعض أصدقاء الفيلسوف من الأجانب ، من أمثال فيدون الأليزى ، والشابين الطيبيين سيمياس Simmias وسيبس Cebes قد قضوا تلك الفترة برمتها في أثينا . وكان سقراط كذلك يسلي نفسه بقرض الشعر لأول مرة في حياته ، فألف نشيداً لأبولو ونظم خرافات أيسوب[٢]. وقد فسر هذا بقوله إن حلماً كان يعاوده طيلة حياته يؤثر فيه بأن « يمارس الموسيقى » وقد كان يظن في الماضي أن معنى ذلك التوجيه هو أن يبذل الجهد في أداء « رسالته » ، إذ أن الفلسفة هي أصدق ألوان الموسيقى . ولكن لما كان الحلم قد عاوده في أثناء سجنه حيث لم يعد هناك مجال للاستمرار في أداء رسالته ، فقد دعته التقوى أن يمتثل لتوجيهاته بمعناها الحرفي .

وقام أصدقاء سقراط بمحاولة أخيرة لإنقاذه ، برشوة حراسه ليتغاضوا عن هربه . وأعدت الترتيبات كلها ، ثم لكي يتوقوا أي امتعاض قد يحسه الفيلسوف من جراء توريط مواطنيه في عمل قد يعود عليهم

(١) نتبين من كلام أفلاطون في محاورة « فيدون » (٥٨ جـ) أن هذا التأخير كان كبيرا . أما تحديد المدة « بشهر » كامل فيجيء في كلام زينون (ذكريات ، ٤ ؛ ٨ ، ٢)

(٢) أفلاطون ، « فيدون » ٦٠ د وما بعدها والأبيات المزعومة التي تبدأ بها هذه القصيدة وتلك موجودة في ديوجينيس ليرتوس (٢ ؛ ٤٢) .

بعواقب وخيمة ، أبدى المعجبان الطيبيان اللذان لا تملك السلطات الأثينية عليهما أى سلطان ، أن يقوما هما بجميع النفقات الضرورية[١] ولكن سقراط كان صادقا لطبيعته ، فرفض اغتنام الفرصة . ويشرح أفلاطون فى محاورة « أقريطون » سبب هذا الرفض ، وهو أن الهرب سيفسد المبادئ التى أنفق حياته بأكملها فى الدعوة إليها . لقد كان الحكم الذى صدر عليه بالإعدام باطلا فى الحقيقة ، وكان الوصول إليه نتيجة تشويه للحقائق مشين للذين أقاموا عليه الدعوى . ولكنه كان حكما قانونيا لمحكمة مؤلفة بطريقة قانونية ، فمن حق الدولة حينئذ أن تضعه موضع التنفيذ . وأن الخطأ الذى ارتكب فى حق سقراط خطأ لم ترتكبه أثينا ، ولكن ارتكبه أنيتوس وميليتوس . فإذا هرب سقراط من السجن فإن ذلك يكون جريمة فى حق الدولة وقوانينها ذاتها ، وهو خيانة لروح المواطنة . لقـــد كان لسقراط من الحرص على إرضاء الضمير كل ما « للمجادل عن عقيدة » فى العصر الحديث ، لكن حرصه ذاك كان ممتزجا باحترام « الضمير العام » وليس هذا مع الأسف معتادا فى مثل هذه الحالة الأخيرة .

وقصة آخر يوم له على هذه الأرض كما يرويها أفلاطون فى محاورة فيدون ، وقد كان غائباً ولكن ، كانت لديه الوسائل الكاملة للحصول على المعلومات من الذين كانوا حاضرين يومئذ ، وكان يكتب لكى يقرءوه ، هذه القصة ربما كانت أروع شىء كتب فى النثر الأدبى فى

---

(١) أقريطون ، ٤٥ ب .

أوربا . فقد كان سقراط قد تلقى أنباء الوقت المحدد له لمغادرة الحياة الدنيا قبل ذلك بيومين « فى حلم » ، ووجده أصدقاؤه فى صحبة زوجه وطفلها ، فأرسل بهما إلى المنزل على الفور ، بحجة ضرورة الحصول على قسط من الراحة (ويبدو أن كسانثيا والطفل كانا قد قضيا الليلة فى السجن) ، وقام بينهم ببشاشة طلعته المعهودة — وكان « المرح من طبيعته بقدر ما كان من طبيعة توماس مور Thomas More — وتحدث كثيراً عن اعتقاده بأن الموت بالنسبة للرجل الصالح هو بمثابة رفع الستار عن رواية كانت حياته كلها مجرد عرض لها : ألا وهى رواية تحرير الروح من « حظيرة » البدن أو « محبسه » حيث كانت حبيسة إلى تلك اللحظة بأمر الله ، لحكمة عليا يعرفها هو ، لتستمتع بالحرية الكبرى فى عالم أفضل ، حيث يعرف الإنسان الحق والحقيقة مواجهة بلا حواجز ، ولا « يتطلع إليها خلسة » من خلال شِبَاك العيون . وإن حياة تنقضى فى « الفلسفة » — فى البحث عن الحقيقة من أجل الحقيقة ذاتها — فهى فى ذاتها إعداد طويل لهذه الدرجة الرفيعة التى ينعم بها الإنسان ، كما أنها هى العبادة الحقة لله الذى يريد منا فى بساطة أن « نصلح الروح » — ذلك الشىء الموجود فى داخل كياننا الذى يفكر ويعرف — « بقدر ما وسعنا الجهد » . وقال : إنه ما دام قد أمضى حياته فى عبادة الله على هذا النحو ، فإن له أن يتطلع فى ثقة إلى المستقبل الذى ينتظره . ولما وجد أن صديقيه الشابين الطيبيين ، سيبيس وسيمياس ، قد اضطربت فى خاطرهما شكوك « علمية » حول الروح ، وأنها قد لا تزيد على أن تكون وظيفة زائلة من وظائف الجسم ،

خصص صباحه الأخير كله للتباحث معهما ، مقدماً لهما مبرراته الخاصة لما يعتقده من « تميز الروح الحقيقى عن البدن » ومبدياً الأسباب التى بنى عليها اعتقاده بأن الروح لا تولد مع الجسم ولا تموت معه ، وإنما تأخذ نصيبها من خلود الحق والخير الذى تعرفه هى معرفة حقة . وكان طوال المناقشة يبدو عليه التحرر من الهم لما ينتظره من الموت الوشيك ، وكذلك من اللهفة اللاهفة إلى التعلق بعقيدة تضفى السكينة على النفس ، دون تقدير كامل لكل ما يمكن أن يقال ضد هذه العقيدة .

ولما انتهت المناقشة — وقد انتهت بصورة متخيلة لمصير الصالحين والشريرين فى عالم الغيب — انسحب سقراط ليعد بدنه للدفن ، حتى لا تؤدى المراسم الضرورية على جثمانه بأيدى الآخرين ، وليقابل « الأطفال والنساء من أسرته » مقابلة خاصة أخيرة . ولا بد أنها كانت مقابلة طويلة ، فقد كان الظلام قد بدأ يخيم فى نهاية يوم ربيع أو يوم صيف حين عاد إلى أصدقائه وعند غروب الشمس جاء « ضابط الأحد عشر » — أو « مدير السجن » كما نستطيع أن نسميه — ليلقى تحية وداع رسمية — لم تخل من الدموع — « لأشجع وأنبل وأفضل رجل سُلّم إليه » . ثم ظهر الشخص الذى سيقوم بالتنفيذ الفعلى لأمر الإعدام يحمل جرعة السم[1] التى كان ينفذ بها حكم الإعدام فى أثينا ، فتناول سقراط

---

(١) لايذكر أفلاطون قط اسم السم الذى استخدم ، ولكننا نعلم من وصف حالات إعدام أخرى أن نبات « الشوكران » كان هو المستخدم عادة . ويدل وصفه وفاة سقراط على أن السم يؤدى فعله ببرودة تنتشر فى الجسم ابتداء من القدمين ، تصحبهما حركة تشنجية تنشأ —

هذه الوعاء فى رباطة جأش ، وكان عليه أن يسكب بعض ما فيه قربانا وصلاة قبل أن يشربه ، لولا أن نُبِّهَ إلى أن الكمية المعدة من السائل لا تسمح بالإسراف فيها . فدعا بكلمات قليلة من أجل « مرور سعيد » إلى العالم الآخر ، وشرب الكأس دون أن يظهر عليه أى نفور أو امتعاض. وعند ذلك لم يستطع أصدقاؤه أن يحتفظوا برباطة جأشهم ، وأخذ عدد منهم ينشج بصوت مسموع ، ووصل انهيـــار الأعصاب بأحدهم — أبولودوروس Apollodorus — إلى حد أن سقراط نفسه دعاه إلى التجمل اللائق . وتنفيذاً لتعليمات ضابط السجن أخذ سقراط يذرع الغرفة جيئة وذهابا بعض الوقت حتى بدأ يحس بقدميه تتثاقلان ، ثم استلقى على فراشه المصنوع من القش وغطى رأسه . ودل جسه باليد على أن الخدر أخذ يرتفع تدريجاً نحو منطقة القلب . وبعد فترة من الصمت رفع الرجل الشيخ عن رأسه الغطاء لحظة ليلقى بهذا الطلب :

« يا أقريطون ، إننا مدينون لاسكليبيوس Asclepius بديك ، فلا تنس أن ترد الدين » وكان هذا آخر ما فاه به . هل كان يحاول فى غير وضوح أن يتذكر حادثة تتعلق بمرض أحد الأطفال فى الأسرة ؟ أم أنه وعد بهذه الهبة لإله الشفاء لأنه كان يرجو أن يفيق من حمى الحياة معافى ؟ وبعد لحظة أخرى حدثت حركة تشنجية ، فلما رفع الغطاء عن الجثة كانت قد فارقتها الحياة . وعندئذ أسبل أقريطون عينيه وأطبق فمه ،

= عن وصول أثر السم إلى القلب . وإذا أردت الاطلاع على الرأى الطبى فى أن المادة المستخدمة كانت هى الشوكران ، انظر بيرنت — فيدون — الملحق رقم ١ .

وهكذا انتهى صديقنا ، الرجل الذى نعتبره أفضل أهل عصره وأحكمهم وأشدهم استقامة

ولقد قص السكندريون القصص عن الأسى والحزن اللذين خيما على الأثينيين ، وكيف قتلوا ميليتوس وكرموا سقراط بإقامة تمثال له . ولكن هذه القصص ظهر من زمن بعيد أنها أسطورية . لقد كان بعض الساسة البارزين فى الديمقراطية التى عادت إلى الحكم يرهبون سقراط باعتباره هو الحافز لألكبيادس وأقريتياس ، وكان هؤلاء الساسة يرغبون فى إخراجه من أثينا ، ولكن لم تكن هناك رغبة فى القضاء على حياته ، ولم يكن من الممكن أن يكون سقراط موضع عداوة ، عامة ، وقد رأينا ما يقرب من خمس وأربعين فى المائة من قضاته فى صف تبرئته . ولم يكن هناك تحول فى الشعور العام بعد موته ، فقد بقيت عواطف الناس منقسمة حول سقراط كما كانت حول ألكبيادس نفسه ، ويتضح هذا من اللغة التى استخدمها إيسوقراط الذى كان يعرف سقراط وإن لم يكن وثيق الصلة به . فإيسوقراط يقول لبوليقراط إنه حين اتهمه فى كتبه بأنه كان معلم الكبيادس لم يكن يقول حقاً ، ومع ذلك فلو أن هذه القولة كانت حقاً لكانت تحية عاطرة لذكرى سقراط أكبر من كل ما يقوله « أولئك الذين اعتادوا إغداق الثناء عليه »[١]

---

(١) أيسوقراط (١١ ؛ ٥ — ٦) لقد قرأ إيسوقراط دون شك محاورة « الدفاع » الأفلاطونية ، ولكن لغته تدل على أنه كان يركن إلى فريق من قرائه ممن يعتزون بذكرى سقراط . وازن فى صدد اختلاف الرأى حول الكبيادس — بين إيسوقراط ١٦ من ناحية وبين ليزياس ١٤ من ناحية أخرى .

إن سقراط ليس مدينا بخلود شهرته باعتباره شهيد الفلسفة إلى أى انفجار عاطفى شعبى عنيف فحسب ، من قبل ديمقراطية فياضة العواطف، بل إلى العناية الإلهية التى منحته صديقا أصغر منه سناً وتابعا له ، ألا وهو الرجل الأوحد فى التاريخ ، الذى جمع بين العظمة البالغة بوصفه مفكرا فلسفيا ، وعظمة أخرى تساويها وهى تمكنه من اللغة . ومن ثم أصبح بالوساطة أو بغير وساطة هو المعلم لكل رجل مفكر منذ عصره إلى اليوم.



الفصل الرابع

فكر سقراط

ما هى أهمية سقراط فى تاريخ الفكر الأوربى ؟ نستطيع من فورنا أن نسقط وجهتى نظر تُتَّخَذَانِ فى بعض الأحيان تجاه هذا السؤال. لأنهما عاجزتان عن شرح الحقائق التى ينبغى تفسيرها . فلم يكن سقراط مجرد واعظ يدعو إلى معايير أخلاقية اصطلح عليها الناس ، وهو اتباع سلوك « الرجل الطيب » لسبب نفعى هو أن طرق الشر « لا تُجْزى » وهى نظرة إلى سقراط يتخذها الذين يعطون أهمية زائدة لبعض أجزاء من كتاب « الذكريات » Memorabilia لزينون وإلا لما كان هناك ما يبرر الحكم عليه بالإعدام لأنه خطر عام ، وما كان لينال الحب العميق من أفلاطون ، ولا الإعجاب الشامل من كل الرجال البارزين فى عهده . ولم يكن لترسم له الصور الساخرة كما رسمها له أرستوفان . وتستطيع أن تقول إن أنيتوس لم يفهم رجله ، وإن أفلاطون قد صوره فى صورة مثالية ، وإن أرستوفان قد شوه معالمه ، ولكن لابد أن شيئا ما هو الذى حفز إلى سوء الفهم من ناحية ، وإلى رَسْمِ الصورة المثالية من ناحية ، وتشويه المعالم من ناحية ثالثة . لابد أن يكون الشخص الذى تتجه إليه هذه الاتجاهات المتباينة شخصا غير عادى على نحو من الأنحاء .

والحق أنه كان شخصية فريدة فى نوعها ذات طابع تتميز به وعلينا أن نكشف فى أى شىء كان يكمن تفرده وأصالته . ولم يكن سقراط كذلك على تلك الصورة التى يتخيلها السطحيون من قراء أفلاطون فى بعض الأحيان : مجرد رجل شكاك ، يسارع إلى تشكيك الناس فى معتقداتهم بأسئلة لوذعية ، من دون استناد إلى معتقدات خاصة يؤمن بها ، معتقدات يطبعها اليقين العلمى إن مجرد المهارة فى التشكيك مقدرة زائفة من حيث ما تنتهى إليه من نتائج ، وإن كانت تورث الارتباك المؤقت عند الناس . أما سقراط فقد رسم الاتجاه العقلى والروحى الذى عاشت عليه أوربا منذ ذلك الحين أما كيف حدث ذلك فهو الأمر الذى ينبغى أن نحاول تفسيره .

تبدو الإجابة فى جوهرها غاية فى السهولة ، وربما كان أقرب الطرق إلى العرض لها هو تلك الصورة المبسطة التى أوردها بيرنت[1] . كان سقراط — على نحو ما يمكن أن نتبينه — هو الذى ابتكر مفهوم « الروح » الذى ظل منذ ذلك الحين يسيطر على الفكر الأوربى . فعلى مدى نيف وألفين من السنين ظل الفرض القائم فى اعتقاد الرجل الأوربى المتمدين أن له « روحا » ، هى الجوهر الذى يستند إليه عقله الواعى والجانب الخلق ، وأنه ما دامت هذه « الروح » هى الكيان الإنسانى نفسه ، أو هى

---

(١) انظر بصفة خاصة مقالة بيرنت «مفهوم سقراط عن الروح» (من أبحاث الأكاديمية البريطانية ص ٢٣٥ — ٢٦٠) ومقالة بعنوان « سقراط » موسوعة هاستنجز للدين وعلم الجمال ، ١١ .

على أية حال أم شيء فيه ، فإن مهمته العظمى فى الحياة هى أن يسعى إلى تحقيق أسمى معانيها وأن يزودها بكل طاقة ممكنة . وهناك — ولا شك — قلة من الناس يرفضون هذه النظرية عن الحياة ، بل إن بعضا منهم لينكر وجود الروح ، ولكنهم قلة ضئيلة . ووجود الروح وأهميتها هما فى نظر الأغلبية الساحقة من الأوربيين عقيدة قريبة إلى نفوسهم إلى حد تعتبر معه بديهية . والحق أن التأثير المباشر الذى كان له أكبر الفضل فى جعل هذه العقيدة قريبة إلى نفوسنا هو المسيحية[1] . ولكن المسيحية حين جاءت إلى العالم الإغريقى الرومانى وجدت المفهوم العام للروح الذى كانت فى حاجة إليه ، معداً لها من قبل على يد الفلسفة . هذا ومما يلفت النظر أننا نجد هذا المفهوم للروح على أنها مصدر القوة الفكرية السوية والخلق ، سائدا فى كتابات الجيل التالى لوفاة سقراط. فهو الموضوع المشترك بين إيسوقراط وأفلاطون وزينون ، ومن ثم لا يمكن أن يكون كشفا خاصا لواحد منهم . ولكنه فى الوقت ذاته غير موجود أصلا ، أو تكاد تخلو منه المؤلفات السابقة كلها . وعلى ذلك فلابد أن تكون من ابتكار رجل معاصر لسقراط ، ولسنا نعلم عن وجود مفكر معاصر يمكن أن تنسب إليه هذه الفكرة سوى سقراط نفسه ، الذى يلقنها فى سياق منطقى متسق غير متناقض على النحو الذى يصوره أفلاطون وزينون فى مؤلفاتهما .

(١) يتكلم المؤلف عن الأوربيين كما هو واضح من السياق (المترجم)

ولاشك أننا نسمع كثيرا فى كتابات اليونان ابتداء من عصر هوميروس عن شيء اسمه « النفس Psyche ، ولكن الأمر الهام أنه ربما لاتوجد فقرة واحدة فى المؤلفات القديمة تؤدى فيه كلمة Psyche ماظلت كلمة الروح تعنيه بالنسبة إلينا قرونا عدة : وهو : الشخصية الواعية ، التى قد تكون حكيمة وقد تكون خرقاء ، فاضلة أو شريرة ، بحسب العناية والتربية اللذين تنالهما ففى المؤلفات السابقة على سقراط كانت كلمة Psyche تعنى على الدوام أحد أمرين ، لايطابق أيهما ماتعلمنا أن نسميه بالروح soul ، وذلك حسبما يجيء استخدام اللفظة فى السياق المشتق عما كتبه هوميروس أو من الديانة الأورفية .

فعند هوميروس نجد أن Psyche تعنى حرفيا «الشبح» ghost فهى شيء حاضر مع الإنسان ما دام حيا ، ويتركه عند الموت فالشبح فى الواقع ما « يخرج » من الميت عند احتضاره . ولكنها ليست « النفس » ، فعند هوميروس أن « البطل ذاته » مميزا عن « شبحه » Psyche » هو « جسده » وعلى الرغم من أن الإنسان لايستطيع أن يعيش حين يفارقه « شبحه » فإن أحدا لا يفكر فى هذا الشبح Psyche على أنه ذو صلة على الإطلاق « بالحياة العقلية » كما ندعوها اليوم . فهذه يقوم بها فى لغة هوميروس « القلب » Kear أو الحجاب الحاجز Phrenes ، وكلاهما عضو جسدى. ثم إن الشبح Phrenes الذى غادر الجسم لا شعور له على الإطلاق ، ولا يزيد الشعور عنده على مايكون من الشعور لظل الإنسان أو انعكاس صورته على صفحة جدول . وكل مايستطيع هذا الشبح الراحل أن يصنعه

هو أن يظهر بين الحين والحين فى أحلام الأحياء فهو بهذا الوضع ليس فى حقيقته شيئا غير «النفس» الذى يستنشقه الإنسان وهو حى، ويخرجه فى النهاية حتى ينتهى أجله . والعلم الأيونى فى وصفه للشبح Psyche يبدأ من هذه الأفكار ثم يمضى فى تجريد الشبح من فرديته المشخصة إلى حد أبعد من هذا . فنظرته الغالبة هى أن «شبحى» هو بكل بساطة ذلك القدر الذى استنشقه من «الهواء» المحيط بنا . و «الهواء» ذاته «آلة» ، ومن ثم فهو يتسم بالوعى . وهذا هو السبب فى أنى أعى ما دمت أستطيع أن أعيد تزويد جهازى «بشحنات» متجددة من «الإله» وحين «ألفظ النفس الأخير» فإن الهواء الإلهى الذى يحتويه كيانى يختلط مرة أخرى بالرصيد العام من «الهواء» الذى ينتشر فى الدنيا على اتساعها ، ولا تستند شخصيتى إلى حامل فرد له صفة الكيان الحقيقى الدائم (نعم إنك تستطيع فى فلسفة هرقليطس Heraclitus أن تجد أن «الروح» — التى افترض أنها ليست «هواء» بل «نارا» — ذات أهمية بالغة ، ولكن من التناقض البين فى هذا التفكير أن الروح تنطوى على فردية دائمة من نوع ما لكى تحتفظ بكيانها عبر تقلبات الميلاد والموت والبعث من جديد ، ومع ذلك فهى فى الوقت ذاته ليست إلا قسطا من «النـــار» الكونية انفصلت عنها انفصالا مؤقتا) .

أما فى الديانة الأورفية — كما هو الحال فى الديانة القريبة منها التى كان يعتنقها الفيثاغوريون القدماء — فإن كلمة Psyche تعنى شيئاً أكثر أهمية . فهى ذات كيان فردى دائم ، ومن ثم فهى خالدة ، بل هى فى الواقع

قبس من الربوبية «هوى» وأبعد بصفة مؤقتة . وإن أهم ما يعنى به الناسكون المتعبدون هو أن يمارسوا قواعد معينه فى حياتهم، بعضها خلق وبعضها تعبدى، تؤدى فى النهاية إلى خلاص «الروح» من «عجلة الميلاد» وعودتها إلى مكانها بين الآلهة ولكنها ليست هى «الروح soul» إذا كنا نعنى بالروح — على حد تعبير سقراط كما أورده أفلاطون — «ذلك الشىء الذى يسكن الجسد ، الذى على أساسه يقال عنا إننا حكماء أو حمقى ، وخيرون أو شريرون ، ويفترض الأورفيون أنها لاتبدى نشاطها إلا حين يكون ما نسميه النفس «العادية» اليقظة متوقفة عن النشاط — فى الأحلام والرؤى ونوبات الغيبوبة . وكما يقول بندار : «إن الروح Psyche تغفو حين تصحو أعضاء الجسم ، ولكن حين ينام جسم الإنسان فإنها تنبىء فى الأحلام عما يحيق بالإنسان من مكروه أو يأتيه من خير [١] ، ومن ثم فإن الذكاء والشخصية الخلقية الخاصين بى لا يتبعان (الروح) التى تسكن جسدى ، وخلودها — على ماله من أهمية فى نظر الأروفيين — ليس فى حقيقة الأمر خلودى (أنا) وحيثما ورد بصفة استثنائية ذكر للروح فى المؤلفات السابقة على سقراط ، على أنها المصدر الذى تنبع منه أية أعمال فى الحياة الواعية ، فإنها تذكر عادة مقترنة بالنزوات الشهوانية التى ينفر منها الحس السليم [٢] . ويبدو من

(١) شذرة ١٣١ Bergk

(٢) مثال ذلك عندما يقول المارد (Cyclops) فى مسرحية يوريبيديس أنه «سيمتع روحه» بوليمة وحشية على لحوم البشر (سيكلوب ٣٤٠) . وكذلك كان الرومان يقولون genio indulgere بنفس المعنى و anima causa agere أى يتصرف بما يمليه عليه هواه .

المؤكد أنه فى أثنيا فى القرن الخامس لم تكن كلمة Psyche توحى للرجل العادى بأكثر مما توحيه كلمة (شبح ghost) إلينا . وهذا هو السبب الذى يجعل أرستوفان فى مسرحية (السحاب) يتحدث عن سقراط ورفقائه بوصفهم oοφai xvxia فهو يريد أن يوحى بأن حياة هؤلاء (المفكرين) لا تفضل حياة كثير من (الأشباح) وهكذا صارت كلمة φ c λo xvxia – أى اهتمام الإنسان بروحه — تعنى التعلق المبتذل (بالحياة الخالية) الذى يؤدى بالإنسان إلى الهلع فى ميدان القتال .

وظاهر أن التطور صوب روحانية أخلاقية ودينية يستلزم الجمع بين العقيدة الأورفية التى تعلق أهمية جوهرية على كل مايتصل بالروح ، وبين الفكرة القائلة بأن هذه الروح وهى أثمن ما فى الكيان الإنسانى هى مصدر الذكاء والخلق فى الشخصية . وهذه بالذات هى الخطوة التى اتخذت فى نظرية سقراط الخاصة بالروح على نحو ما نجد فى تعاليمه الواردة على لسانه فى أفلاطون وزينون . وعن طريق هذا الخروج على الفلسفة الأورفية ، والإصرار على أن يتبوأ سلوك الإنسان فى الحياة المكانة الرئيسية التى كانت فى نظر المفكرين القدامى وقفا على الفلك وعلم الحياة ، هبط سقراط بالفلسفة من السماء إلى الأرض على حد التعبير المبتذل الذى استعمله شيشيرون . وبعبارة أخرى فإن ماقام به على وجه التحديد كان هو الفصل بين الفلسفة من حيث هى دراسة لها طابعها الخاص وبين العلم الطبيعى ثم التصوف فى آن واحد ، بل هى كذلك بمعزل عن أى خليط من هذين ، وأخيرا تأكيد هذا الفصل بشكل قاطع . إن

الروح — كما يتصورها — تحمل كل الأهمية والذاتية الدائمة التى تحملها الروح الأورفية Psyche ويبدو لى واضحا — لأسباب سبق إبداؤها — أننا ينبغى أن نصدق ما يقدمه لنا أفلاطون من إيمان أستاذه الوثيق بخلود الروح ، وحين يجرى هذا على لسان رجل إغريقى ، فإن معناه بصفة أساسية قدسية هذه الروح فى الأصل ، وهذا هو المبرر الحقيقى لقيام رسالة يبشر بها كل الناس وفى كل وقت ، خلاصتها أن الواجب الأوحد هو (رعاية الروح) و (جعلها صالحة بقدر المستطاع) مهما كان الثمن الذى يؤديه الإنسان من ماله أو جسمه ولكن المطابقة الكاملة بين الروح التى واجبنا الأول هو رعايتها ، وبين النفس العادية ، يعنى دون شك أن هذه (الرعاية) لن تكون عن طريق أداء الطقوس والمراسم الخاصة بالتطهر والامتناع عن إتيان بعض الأمور ، بل تكون بتعويد النفس على التفكير الشديد والخلق السديد . ويكون واجب الإنسان أن يكون فى وسعه (تقديم حساب) عما يعتقده ويعمله ، وأن يكون لديه التبرير العقلى لهذا أو ذاك . أما عدم مبالاتنا بواجبنا إزاء (رعاية) أرواحنا فإن ذلك بالتحديد هو أن نمضى فى إصرار على ما نعتزم المضى فيه دون أن نستطيع تبريره التبرير المعقول وهذا هو السبب فى أن سقراط حين قام يؤدى رسالته ، كانت مهمته الأولى أن يوجه تهمة الجهل للقوم غير المتنورين ، ويظهر لهم ضآلة ما لديهم من تبرير عقلى واع لما يعملون وما يعتقدون .

ويجب أن نلاحظ أن هذه العقيدة السقراطية عن الروح ليست داخلة فى علم النفس بالمعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة ، ولا هى داخلة فى نطاق سيكولوجية الجسد (السيكوفيزيقية) ، وهى لا تقول لنا شيئاً عن (ماهية) الروح ، أكثر من أنها فى ذلك الشىء الذى يسكن الجسد ، أيا كانت ماهيته ، الذى بمقتضاه ندعى حكماء أو حمق ، (صالحين أو شريرين) وأنها لا ترى ولا تدرك بأية حاسة من الحواس . إنها ليست عقيدة تبحث فى (وظائف) الروح ولا فى (جوهرها) . والفكرة فيها هى أن (العمل) أو (الوظيفة) التى يقوم بها هذا الجانب القدسى فى تكوين الإنسان ، هى فقط أن تعرف ، وأن تدرك الأشياء كما هى فى حقيقتها، ومن ثم أن (تعرف) بصفة خاصة الخير والشر ، و (توجه) أو (تحكم) أعمال الإنسان بحيث يحيا حياة يتجنب فيها الشر ويتوصل إلى عمل الخير . ومن ثم فإن الأمر الذى يعنى سقراط لا يتصل بعلم النفس النظرى ولا علم النفس التجريبى[1] ، وإنما هو مبدأ مشترك بين نظرية المعرفة وعلم الأخلاق.

فجعل الروح صالحة بقدر المستطاع) معناه فى ناحية من النواحى إدراك حقيقة الوجود ، ومن ناحية أخرى إرساء السلوك الخلقى للإنسان على معرفة حقيقية (بالقيم الخلقية) . وفى كلا المجالين يكون الشىء الذى ينبغى

---

(١) علم النفس التجريبى، والذى أسسه ألقميون الكروتونى Alcmaeon af Crotona كان عمثله على أيام سقراط أولئك العلماء الفيثاغوريون الذين كانوا يعتقدون أن الروح هى عنصر الاتساق الذى يسرى فى نشاط الجسد، وهى عقيدة — كما يظهر فى محاورة فيدون تناقض «ديانة» فيثاغورس وسقراط.

التغلب عليه هو وضع (الرأى) و (الهوى) — وهى افتراضات لا يمكن إثبات صدقها — محل المعرفة . وكما أن العلم يفسده الخلط بين الوهم والحقيقة ، فكذلك الحياة العملية يفسدها التقدير الزائف للخير . وعلينا الآن أن نتبين كيف أن معرفة الحقيقة على هذه الصورة — تلك المعرفة التى تعتبر أسمى مهام الروح وبالتالى أسمى مهام الإنسان — تنهض افتراضا معقولا نبتدئ به نظرية للعلم والأخلاق فى نفس الوقت ونستطيع أن نكون على يقين — حتى من دون توجيهات أفلاطون الصريحة — من أن اهتمام سقراط بالمشكلة العلمية يرجع إلى الفترة الباكرة من حياته ، وأن الجانب الأخلاقى من تفكيره كان العنصر الذى انفرد بالسيطرة على تفكيره فى السنوات الأخيرة التى وهبها لرسالته إلى الجنس البشرى . ولكننا سنتناول الأمرين بترتيب عكسى ، بالنظر إلى ما اتفق عليه عامة الباحثين بشأن الخصائص المميزة لنظريات سقراط الأخلاقية .

١ — علم الأخلاق : حينما تتاح الفرصة لأرسطو ليتحدث عن تعاليم سقراط الأخلاقية المتميزة فإنه ينسب إليه ثلاثة مبادئ خاصة ، تبدو كلها لأول وهلة على شىء من التناقض .

(ا) الفضيلة — أى السمو الخلقى — هى المعرفة . ومن أجل ذلك كانت الفضائل كلها التى نميز بينها شيئا واحدا .

(ب) الرذيلة — أى السلوك الخلقى السيىء — هى إذن الجهل فى جميع الحالات ، أى أنها الخطأ العقلى .

(هـ) وعلى ذلك يكون الشر دائما عملا غير إرادى . ولا توجد فى الواقع حالة من حالات الروح كتلك التى يسميها أرسطو «الضعف الخلقى» (acrasia) : «أن يعرف الإنسان الخير ومع ذلك يعمل الشر»

وواضح أن أرسطو قد استقى هذه الأقوال بصورة مباشرة من قراءته لمحاورة كبيرة معينة من محاورات أفلاطون هى محاورة بروتاجوراس حيث توجد جميعها . ولكنها تصف وصفاً مجملا أصل الفكرة التى عرض لها سقراط عن الأمور الخلقية فى محاورات أفلاطون الأولى ، وهى تظهر مرة أخرى فى صورة مبسطة فى كتاب «الذكريات» Memorabilia الذى ألفه زينون . وسوف نمسك بالخيط الرئيسى فى البرهان إذا استطعنا أن نكشف عن وجهة النظر التى تبطل ما فيها من تناقض وتظهرها واضحة جلية

وربما كان الأنسب أن نبدأ هذه الأقوال بما يبدو أنه أشدها تناقضا : وهو الزعم بأن عمل الشر غير إرادى . (فالضعف الخلقى) أى قيام الناس بما يعترفون هم أنفسهم بأنه خطأ وقيامهم به دون أى إكراه ، هو من التجارب المعروفة عند الناس جميعا ، وليس لنا أن نفترض أن سقراط يقصد إلى إنكار ذلك ولكنه يقصد أن يقول إن هذه العبارة الدارجة التى استخدمناها منذ هنيهة تقصر دون تحليل هذه الحقيقة التحليل الكافى. إن الإنسان كثيراً ما يعمل الشر على الرغم من أنه شر ولكن لا يوجد إنسان يصنع الشر لمجرد أنه يرى أنه شر ، بنفس الصورة التى يصنع بها الإنسان الخير لمجرد أنه خير . وإنما يعمد الإنسان مؤقتاً إلى مخادعة

نفسه بالنظر إلى الشر على أنه خير ، قبل أن يقبل القيام به . وكما عبرت محاورة جورجياس : إن هناك فى كل منا رغبة أساسية لا تمحى : هى الرغبة فى (الخير) أو (السعادة) ومن الممكن فى جميع الأشياء الأخرى أن يفضل الإنسان المظهر على الحقيقة . يفضل المظهر الخارجى للسلطان مثلا أو الثروة على الشيء ذاته ، ولكن لا يمكن أن يرغب الإنسان فى مظهر الخير أو السعادة بدلا من الحقيقة ذاتها . تلك هى الحالة الوحيدة التى لا يغنى فيها المظهر عن الجوهر . والقول بأن الشر غير إرادى معناه إذن أنه لا يطلب الشخص الشرير ما يكون قلبه — ككل قلب آخر — تواقاً إلى الحصول عليه سواء أعرف ذلك أم لم يعرفه . والنمط الإغريقى (لشيطان الشر)وهو (الطاغية) الذى يتحدى كل القوانين ، قد يمضى حياته كلها (يعبث) بالناس وبممتلكاتهم ، ولكنه لهذا السبب ذاته — لأنه دائما يصنع كما يشتهى — لا يحصل قط على ما يتوق إليه فهو يتوق إلى السعادة والرضى ، ولكنه فى آخر الأمر يحصد الشقاء وتلك الروح تبلغ من الانهيار أقصاه ، بل وربما كان من الأفضل له أن يكون مجرما محكوما عليـــه بالإعدام ، لأن الموت قد يكون هو (العلاج) الحاسم المطلوب لعلاج المرض الذى عبث بروح المجرم . وعلى ذلك فإنه إذا علم الإنسان علماً يقيناً لاسبيل إلى الشك فيه ،كما لاسبيل إلى الشك فى وجوده هو ذاته ،أن مايدعى (طيبات) الجسد والمتاع المادى لاتساوى شيئاً يذكر إلى جانب خير الروح ، بالإضافة إلى علمه بما فيه الخير للروح ، فليس هناك على الإطلاق شيء يمكن أن يغريه بعمل الشر . إن عمل الشر يعتمد

دائما على تقدير زائف للطيبات . والإنسان يقدم على عمل الشر لأنه يتوقع توقعاً زائفاً أن يحصل منه على خير : يحصل على ثروة أو سلطان أو متاع . ولا يحمل باله إلى أن إثم الروح الذى ارتكبه أثقل بكثير من هذه المكاسب المزعومة . وهكذا يتفق سقراط فى نقطة من النقط مع مذهب اللذة ، وهى أن عمل الشر ينشأ عن سوء التقدير ، ولكن سوء التقدير ليس فى (مقادير اللذة) بل فى قيم الخير [١] .

والآن يتضح لنا المقصود بقولنا إن كل الفضائل شيء واحد ، وإن ذلك الشيء هو المعرفة . ولقد كانت نظرة البشرية فى وقت سقراط كما هى فى وقتنا الحاضر أن الفضائل الخلقية كَثْرة لا فرد — وكل واحدة منها تختلف عن الأخريات ، وأنك قد تتحلى بإحدى الفضائل بالدرجة القصوى دون أن يكون لك نصيب من فضيلة أخرى تستطيع مثلا أن تكون (أشجع الشجعان) وتكون مع ذلك متهتكا بقدر ما أنت شجاع . أو تكون أكثر الناس عفة وتكون مع ذلك غاية فى البخل والظلم . وسقراط يقر بأن ذلك حق ، إذا كان ما تقصده بالفضيلة هو ما يسميه فى محاورات أفلاطون « الفضيلة الوضيعة » أى ذلك النوع من الاحترام الظاهرى لمعايير أخلاقية اصطلح عليها الناس دون اقتناع ذاتى بأهمية

---

(١) هذه هى النقطة الجوهرية فى البرهان الذى يسوقه أفلاطون فى محاورة بروتاجوراس ، حيث يبدو سقراط لأول وهلة كأنه يقول بمذهب اللذة . فهو يريد أن يثبت « للكثيرين — حتى من وجهة نظرهم ذاتها وهى أن الخير واللذة شيء واحد — أنه لا يوجد تناقض فى اعتبار شجاعة الرجل الفاضل والمعرفة شيئاً واحداً ، وما دام هؤلاء على استعداد للتسليم بأن الجبان الذى يفر من الخطر يخطئ تقدير « ميزان اللذات والآلام » .

الروح البالغة ، والتطابق الكامل بين السعادة الحقيقية و « صحة » الروح ، مكتفين بمجرد السلوك اللائق عملا بأوضاع اجتماعية ارتضتها مجتمعاتهم ، وأنهم يتوقعون أن يقعوا فى متاعب إذا سلكوا سلوكا مغايرا . ولكن هذه الفضيلة (الوضيعة) ليست إلا بديلا زائفا من الحقيقة . أما الفضيلة الحقيقية فأمر يستند إلى عقيدة قوية ، تلك هى المعرفة الذاتية بالقيم الخلقية الحقيقية . ومن ثم فإن هناك مبدأ واحدا هو الأساس فى كل مظاهرها المتنوعة فى ملابسات الحياة المختلفة والإنسان الذى يدرك هذا المبدأ ببصيرة حقيقية مردها إلى معرفة حقيقية ، لا يمكنه من ثم أن يطبقها فى بعض الحالات دون الأخرى . فالمعرفة الحقيقية بما هو خير للروح لابد أن تظهر فى موقف موحد تجاه كل ملابسات الحياة ، ومن ثم تختفى فى حياة (الفيلسوف) تلك الخطوط الظاهرية التى تفصل لونا من الخلق السامى عن لون آخر وإنما تكون أخلاقه فى مجموعها تعبيراً عن سمو واحد ، ومعرفة واثقة (بميزان الخير) الحقيقى . وهذا يفسر لنا حقيقة عجيبة : هى أن أكثر من واحدة من محاورات أفلاطون تنتهى بنتيجة واحدة سلبية فى الظاهر . وعلينا أن نتدبر الطابع الحقيقى لبعض الصفات التى يجرى العرف على اعتبارها فضائل (ضبط النفس فى محاورة خرميدس والشجاعة فى محاورة لاخس) ويبدو أن التفكير سينتهى بنا إلى نتيجة مؤداها أن الصفة التى نبحث أمرها هى فى الحقيقة (معرفة) الخير ، حتى نتبين فى السياق أن هذا التعريف ليس خاصا بالفضيلة المفردة التى نبحثها فى ظاهر الأمر ، بل بكل الفضائل باعتبارها كلا

واحدا . ومن الوجهة الشكلية يعرض هذا البرهان كدليل على أننا مازال نجهل إجابة السؤال المطروح علينا كما كنا نجهله عند بداية البحث . ولكن سنفهم — على هذا الأساس — أن محاولة تعريف فضيلة مفردة أمر ينتهى بنا إلى شىء لا يمكن اعتباره تعريفاً لتلك الفضيلة المعينة أكثر مما هو تعريف لغيرها من الفضائل ، لأن الفضائل كلها تستند إلى أصل واحد من حيث المبدأ .

وما من شك فى أن «المعرفة» التى يرى سقراط أنها هى الفضيلة على هذه الصورة ليست أى شىء . وكل شىء يمكن أن يطلق عليه اسم «المعرفة» بل هى المعرفة بما يسمى فى هذه الأيام «القيمة الخلقية» : أى المعرفة بما فيه الخير لنفسى . ولكن هذا يؤدى إلى صعوبة حقيقية : إذ كيف يمكن الوصول إلى هذا النوع من المعرفة ؟ فإذا كانت الفضيلة من ناحية هى المعرفة ، فإن حيازتها أو عدم حيازتها ليست من نوع الطبيعة المتوارثة التى تأتى دون جهد . فالناس لا يأتون إلى هذا العالم مشتملين على الفضيلة أكثر مما يأتون إليه وفى حوزتهم أى نوع آخر من المعرفة . وإنما عليهم أن «يكتسبوا» المعرفة اكتساباً . ومع ذلك فإن الفكرة السائدة على نطاق واسع بين الناس ، والقائلة بأننا نلتقط «الصلاح» آليا كما نلتقط اللغة التى نتكلمها ، تحت تأثير الأبوين الصالحين والبيئة الاجتماعية الصالحة . . هذه الفكرة لا يمكن أن تكون صحيحة . فمن المؤكد أن بركليز وغيره من البارزين الذين يعتبرهم الشعب الأثينى «أفضل رجاله» بلا منازع عجزوا عن أن يورثوا ذريتهم ما امتازوا هم به من مثل أخلاقية ،

ومن ثم كان الأبناء على درجة من الانهيار الخلقى . ومن ناحية أخرى فإن السوفسطائيين البارزين يعلنون أن فى استطاعتهم أن يعلموا الصلاح، كما يمكن أن يعلموا أية أساليب فنية عن طريق التعليم وفق منهاج معين . فإذا كانت الفضيلة هى المعرفة ، ولا شىء غير المعرفة ، فمن المؤكد إذن أن تكون قابلة للتعليم على نحو ما . فالشخص الذى يملك هذه المعرفة ينبغى أن يكون قادراً على توجيه الآخرين لاكتسابها . ومع ذلك فإن دعوى المعلمين بأن فى مقدورهم أن يعلموها للناس بسلسلة من المحاضرات لا بد أن تكون دعوى فارغة . والنقطة التى تصور محاورات أفلاطون سقراط وهو يرددها معارضاً بها المعلمين والمعجبين بهم ، نقطة بسيطة . إذ الذى يستطيع السوفسطائى أن يعمله لا يعدو أن يكون ميزة معينة ذات طابع خاص : هو كيفية القيام بعمل لا يستطيع عامة الناس أن يعملوه . أما الفضيلة أو الصلاح فليست تخصصاً محدود النطاق . وإنما نطاقها هو السلوك البشرى بأجمعه . ثم إن التخصص أمر يمكن أن يستخدم فى طريق الخير كما يمكن أن يستخدم فى طريق الشر . مثال ذلك المعرفة بالطب التى يمكن أن تستخدم فى علاج الأمراض ، كما يمكن استخدامها للقتل . [1] وأقصى ما يمكن أن ينجح فيه السوفسطائى هو تلقين فن تخصص فيه . ولكن الذى لا يستطيع أن يمنحه هو (معرفة الخير) التى تضمن أن استخدام تلك المعرفة سيكون على وجه التأكيد فى سبيل الخير لا فى سبيل الشر .

---

(١) من المعلوم أن أمهر المجرمين فى قضايا القتل بالسم هم عادة من رجال الطب .

كيف إذن يتعلم الإنسان ذلك النوع الوحيد من المعرفة الذى ينفعه إلى أقصى حد أن يحصل عليه — معرفة الخير . ليس من الواضح أن سقراط قد وصل قط إلى حل حاسم لهذه المشكلة . ولكننا قد نستطيع أن نتبين الطابع العام للإجابة التى كان يمكن أن يعطيها . فطبقاً لما يقوله أفلاطون[١] قد لفت نظر سقراط فى الديانة الأورفية أن هناك وسائل يمكن بها إعادة الروح إلى تذكر أصلها الإلهى الذى نسيته ، وأنه من هذه الإشارة وصل إلى الاعتقاد بأن كسب المعرفة هو فى الحقيقة عملية (تذكر) أو «تعرف» Anammesie تكون فيها بعض الوقائع الحسية الجزئية باعثة أو موحية بضرورة وجود مبدأ كلى يفوق الوقائع ذاتها. إن العالم الرياضى يستطيع برسم شكل هندسى وتوجيه سلسلة من الأسئلة التى تتعلق

---

(٢) انظر بصفة خاصة التذكريات ٨١ ا — ٨٥ ﻫ ، حيث تشرح النظرية شرحا محكما « بدرس » فى الهندسة يعطيه سقراط لصبى من الأرقاء جاهل فى العلم ، و « فيدون » ٧٢ ﻫ وما بعدها حيث ترد إشارة مماثلة إلى اكتساب المعرفة الهندسية . وفى كلا الموضعين تعقد الصلة بين المذهب وبين خلود الروح ، ولكن يبين بوضوح أنها — وهى نظرية خاصة بالكشف عن حقيقة من الحقائق — مستقلة عن هـذا المعتقد الدينى (وهى تظهر فى الواقع فى نهاية كتاب أرسطو « التحليلات الثانية ، ٢ Posterior analyticsii » دون أى ارتباط بالدين ، بوصفها شرح أرسطو نفسه للطريقة التى يمكن أن تصل منها إلى أسس « الاستقراء »). وفى « فيدون » (فى نفس الموضوع) يرد المذهب القائل بأن التعلم هو مجرد المعرفة على لسان سيمياس وهو يتحدث إلى سقراط قائلا عنه فى وضوح إنه «المذهب الذى لا يفتأ تكرره» وما لم يكن فى نيتنا أن نعتبر محاورة فيدون تعمية ضخمة لا تغتفر فإن هـذا يبدو لى برهانا كافيا على أن النظرية ترجع حقا لسقراط . من أجل الحصول على صورة واضحة موجزة لمعتقدات أفلاطون انظر الرسائل ، ٧ — ٣٤١ ﻫ وتعليقات بيرنت على هـذه الفقرة فى كتابه « الفلسفة الإغريقية » ﺣ ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

بالموضوع أن يوجه الطالب إلى التعرف على قضيته كلية . ولن يحتاج إلى أن يعطى أية معلومات . ذلك أنه إذا رسم الشكل الهندسى الصحيح وأطلق ذهن الطالب إلى التفكير فيه بتوجيه الأسئلة الصحيحة فإن الذهن سيصل إلى النتيجة الصحيحة نتيجة لتفكير تلقائى أو استدلال عقلى بحت ، كما لو كان يستمد المعرفة من مستودع كامن فيه يملكه بالفعل على غير وعى منه . والحقيقة التى (يتعلمها) الإنسان على هذا النحو ، يتوصل إليها (باكتشاف) شخصى لم يرد (المعلم) على أن نبهه إليها . ومع ذلك فهو (يتعرف) عليها كأنها متضمنة فيما كان (المتعلم) يعرفه طيلة عملية الإيحاء هذه . وبنفس الطريقة فإن الأسئلة الحاذقة التى يوجهها رجل مثل سقراط يضطرنا إلى (تقديم حساب) عن الطريقة التى نوجه بها حياتنا ، تستثير عقل الشخص الذى توجه إليه الأسئلة ليصبح على بينة مما يستتبع القيم الخلقية التى نتحكم بها فى سلوكنا وسلوك سوانا . وقد كانت هذه هى نقطة البدء التى استطرد منها أفلاطون إلى تفصيل أو تطوير نظريته الخاصة فى (الفلسفة) التى جاءت ثمرة احتكاك العقول التى دأبت فى السعى وراء الحقيقة .

لقد كان العقل الإغريقى على حق فيما ذهب إليه من عدم التفرقة بين مبادئ السلوك الشخصى ومبادئ السلوك العام ، أى لا يفرق بين الأخلاق و (السياسة) وسقراط الذى آمن بأن (الخير) هو التقدير السليم للقيم استطاع فى غير تناقض تطبيق عقيدته هذه على أخلاقيات الدولة وساستها . فقيمة الدولة ورجالاتها تعتمد فى نظره اعتماداً كلياً

على مدى اعتماد الحياة القومية على سلم صحيح للخير . وقد كان أمراً خارجاً من حسابه — رغم شدة إخلاصه للدستور — أنه كان لزاماً عليه أن يؤيد الديمقراطية من حيث المبدأ ، مبدأ إعطاء السلطة للجمهور الذى لا معرفة له بالخير ، بل الذى لم يعلم قط أن مثل هذه المعرفة مؤهل ضرورى لسياسة أموره . والأحكام التى تجرى على لسانه فى محاورتى أفلاطون : جورجياس والجمهورية ، عن الديمقراطية الإغريقية ، أقسى بكثير من كل ما قاله أفلاطون بلسانه الخاص عن الحكومة الديمقراطية فى المحاورات الأخيرة من أمثال السياسة و (القوانين) ويبدو لى أنه من المحتمل أن تكون القسوة فى هذه الأحكام صادرة عن سقراط أكثر مما هى صادرة عن أفلاطون[1] . إن المبـــدأ الرئيسى فى الديمقراطية

(١) حين تؤخذ لغة المحاورات الأولى على أنهـا معبرة عن أفـكار أفلاطون الخاصة ، فان الأحكام الأقل منهـا عنفا التى ترد فى المحاورات اللاحقة ، تفسر بأنهـا ناشئة عن الأثر الملطف الذى أحدثه الزمن فى عقل كان مصرع سقراط قد هاجه وشتت أفـكاره. وقد يكون الأمر كذلك . ولـكن يوجد دائماً احتمال يستند إلى أسس سيكولوجية بأن الأحكام الأعنف هى أحـكام سقراط نفسه ، فان خيبة الأمل التى أصابته حين ازدادت الديمقراطية الأثينية تضييقا وعنفاً خلال الحرب الـكبرى ، يزيد من مرارتها أنه عاش فى « الخمسين السنة العظيمة » التى سبقت الحرب ، ولا بد أنه كان يتوقع أموراً تختلف أشد الاختلاف عما حدث بالفعل . وفى إحدى المحاورات المتأخرة جداً وهى محاورة « طيماوس » يرسل أفلاطون على لسان سقراط اعترافا بأنه أقرب إلى أن يكون رجلا نظرياً فى السياسة بسبب عدم خبرته الشخصية فى شئون الحياة العامة (طيماوس ١٩ د) ونعلم من زينون (ذكريات ، ١ ؛ ٢ ؛ ٩) أن السخرية التى وجهها إلى الإجراء الديمقراطى الذى يقضى بملء مناصب الحكام (magistrates) عن طريق القرعة كانت من بين الأسس « الحيثيات » التى أقيمت عليها الدعوى ضد سقراط ، والتى زينون يدافع عنها فى كتابه .

— إذا أمكن أن نسميه مبدأ — هو بحسب ما جاء فى « الجمهورية » أنها ترفض أن تتطلب أى امتياز عقلى أو خلقى بوصفه مؤهلا للزعامة . ففى الجماعة الديمقراطية — كما يقول نيتشه — « يوجد قطيع واحد ولا يوجد راع » ، وهذا هو السبب فى أن مصيرها الطبيعى أن تقع فى يد حاكم مستبد (دكتاتور) قدير ولكن لا ضمير له (أو فى يد طاغية كما كان الإغريق يدعونه) ولا يقل عن ذلك قسوة ذلك الحكم الذى يرد فى محاورة جورجياس على كل زعماء الديمقراطية الأثينية المشهورين من تيمستوكليز Themistocles إلى بركليز ، باستثناء واحد محدود الأفق ، هو « أرستيدس العادل » . فلم يكن واحد منهم حائزاً على معرفة الخير التى هى الشىء الوحيد المطلوب فى الحياة ، كما يبدو ذلك من اعتبارين اثنين . أولها أن أحداً منهم لم يستطع — ولا أرستيدس نفسه — أن يمنح أية فضيلة من الفضائل التى تحلى هو بها إلى ولده . والثانى أن أحداً منهم — باستثناء أرستيدس — لم يستطع إذكاء الروح الخيرة فى عامة الشعب بوصفه الراعى المسئول . إن تيمستوكليز وبركليز وغيرهما قد جعلوا أثينا أقوى وأغنى ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من أجل (أخلاق) الشعب . لقد (ملئوا المدينة بالسفن والمرافئ لا بالإصلاح أو التقوى) . اعطوها ثراء دنيويا ولكنهم لم يعطوها مثلا أخلاقية حقيقية . ومن ثم تقول لنا محاورة جورجياس إنهم على الرغم من كونهم (خداما) أكفاء للشعب ، فإنه لا يحق لهم أن يزعموا أنهم كانوا — كما ينبغى للساسة الحقيقيين — (أطباء) ذلك الشعب . ومن الواضح أنه كان من عادة سقراط فى حقيقة الأمر

أن يستخدم ذلك النوع من البرهان الذى ينسبه إليه أفلاطون بشأن عجز رجال الحكم الأثينيين عن منح (الصلاح) لأبنائهم ، واتخاذ ذلك دليلا على أن (صلاحهم) الظاهرى لم يكن شيئا حقيقيا . وفى محاورة (مينون Meno) يصور أنيتوس بأنه يحذر سقراط تحذيراً قويا من أن هذا البخس من قيمة الأبطال الوطنين لعبة خطرة ، وتلك إشارة صريحة إلى اعتقاد أفلاطون أنه قد كان لهذا الأمر صلة وثيقة إثارة الحملة التى أدت إلى محاكته .

والتنظيم الصحيح للمجتمع من وجهة نظر سقراط هو الذى يكون فيه الوضع الاجتماعى لكل إنسان والوظيفة التى يؤديها — رجلَ سياسة كان أو جندياً أو منتجاً — محكومَيْن بطبيعة العمل الذى تؤهله له استعداداته وإدراكه وخلقه ، وهذا على وجه التحديد هو المثل الأعلى الذى يتضمنه فى صورة مجملة وصف المدينة الفاضلة الذى يملأ الأجزاء الأولى من جمهورية أفلاطون . وإلى هنا يمكن أن يقال إن الفكرة من إيحاء سقراط المباشر . أما إلى أى مدى يرجع أىٌّ من تفصيلاتها بالفعل إلى تفكير سقراط ، فمسألة أخرى ، وإن كان هناك مايوحى بأن الأمر كذلك بالنسبة لفكرة من الأفكار الجوهرية فيها ، وهى الاقتراح الخاص بقبول النساء على قدم المساواة مع الرجال فى الوظائف العامة من مدنية وعسكرية ، وإعطائهن التعليم الذى يؤهلهن لذلك . والذى يوحى بأن سقراط قد اعتنق مبدأً مثالياً من هذا النوع هو أن أسكينس كذلك فى محاورته المسماة أسبازيا Aspasia قد أسهب فى الحديث عن المقدرة

السياسية لأسبازيا ذاتها وأخريات غيرها ، وعن المهارة الحربية التى كان يظن أن الأميرة الفارسية الحقيقية أو الخرافية رودوجين Rhodogyne قد أبدتها . كما أن زينون على لسان سقراط يدافع عن فكرة أن المرأة إذا نالت التدريب اللازم صارت قادرة على نفس ما يقـــدر عليه الرجل(١) .

٢ — نظرية المعرفة ومنهاج البحث العلمى : يشير أرسطو فى كتابه الميتافيزيقيا ، إلى أننا « ينبغى حقاً أن ننسب إلى سقراط أمرين : براهين الاستقراء والتعريفات العامة »(٢) وهذا لا يؤدى بنا إلى كثير .

فمن الواضح أن الذى يقصد إليـه أرسطو لم يكن تصوير فلسفة سقراط تصويراً كاملا بقدر ما كان تخصيص بعض العناصر المكوّنة

(١) انظر المقتطفات الموجودة من « أسبازيا » فى طبعتى كراوس ودتمار Krauss & Ditmar وشهـــادة زينون على اعتقاد سقراط بأن المرأة ليست أسوأ فى استعدادها الفطرى من الرجل بالطبيعة « موجود فى كتاب المأدبة ، ٢ ، ٩ » وإذا أردت برهاناً من كلام زينون على أن المعرفة هى المطلب الوحيد الذى يؤهل للسيادة فانظر . ذكريات ، ٣ : ٩ ، ١٠ ، وقارن هذا بكل ما جاء فى الجزء ٣ — ٦ حيث يثبط سقراط جلوكون Gaucon عن دخول الحياة العامة قبل الأوان بفضح جهله بالإحصاءات الحربية والمالية . أما حديث زينون عن هذا النوع من الجهل وحده دون ما هو أخطر منه وهو الجهل بالقيم الخلقية فانه يبدو لى طابعاً مميزاً للرجل نفسه .

(٢) انظر ميتافيزيقا ٧٨ · ١ ب ٢٧ ويفيض بعض الباحثين المجيدين من الألمان المحدثين فى إنكارهم أن سقراط قد اهتم « بالتعريف » . وهذا صحيح بمعنى أن اهتمامه لم يكن موجها إلى المدلولات النظرية من أجل ذاتها ، وإنما إلى القواعد العملية للسلوك . ولـكن الأمر الذى يبرر طريقة أرسطو فى التعبير عن رأيه ، إنه يفكر فى التركيب الصورى لبعض المؤلفات من أمثاله خرميدس ولاخس وبرتاجوراس ومينون والجمهورية ٤ .

لفلسفته هو الخاصة وإرجاعها إلى سقراط ، ويبدو أنه قد بنى تقريره ذلك على مجرد قراءته لمحاورات أفلاطون ، التى توضح هذه النقطة توضيحاً وافياً . أما زينون فإن اهتمامه بالدفاع عن سداد الدروس الخلقية التى كان يعطيها أستاذه القديم ، لم يترك له رغبة كبيرة فى أى شىء آخر . والفرص المبسوطة أمامنا لنستكشف مزيداً من المعلومات عن سقراط بوصفه مفكراً تتناول موضوعات أخرى غير الموضوعات الخلقية الخالصة ، مرتبطة ارتباطاً كاملا بمدى ما فى القصص الذى يجرى على لسانه فى محاورة فيدون الأفلاطونية[١] ويروى فيه وقائع حياته ، من صدق تاريخى ، وإنه ليبدو لى ، كما قلت من قبل ، أننا ملزمون بأخذ هذا القصص على أنه عين ما يعتقد أفلاطون أنه حقيقة تاريخية . وإلا فالبديل من ذلك أن نفترض أن بياناً بما قاله سقراط عن نفسه فى آخر يوم من أيام حياته ، فى حضرة عدد من أصدقائه المقربين كانوا كلهم على قيد الحياة عند نشر هذا البيان ومن المؤكد أن يقرءوه . . يمكن أن يكون قصة مخترعة ، لا شك أن كل أولئك القرا كانوا سيكشفون زيفها على الفور . وليس هناك فى الواقع من يملك شجاعة الانسياق وراء هذه النظرية . فالجميع مثلا يتقبلون قصة تقدير سقراط لكتاب أنكساغورس وخيبة أمله فيه ، على أنها حقيقة ، مع أننا لا نملك دليلا عليها إلا المقالة الواردة « فيدون » ولكن هذا البيان الوارد

(١) فيدون ٩٦ ا — ١٠٠ ه ينبغى دراسة الفقرة كلها دراسة دقيقة مع التعليقات الواردة عليها فى طبعة بيرنت لهذه المحاورة (أكسفورد سنة ١٩١١) .

فى « فيدون » ليس إلا بداية قصة متماسكة ، فلزم حينئذ — لنكون منطقيين مع أنفسنا — إما أن نتقبل بقية القصة على أنها حقيقية ودقيقة التفاصيل ، وإما أن ننظر إلى الجملة الأولى بنفس نظرة الشك التى نرى بها ما تلاها . أما عن نفسى فليس لدى كبير شك فى أى الطريقين أقرب إلى التفكير السليم . ولن ينكر عاقل بالطبع أن أفلاطون — ككل فنان عظيم — قد مزج فكره الخاص بالموضوع الذى يتناوله . ولكنه أمر مختلف تمام الاختلاف أن نزعم أنه على وعى منه يقدم لنا ملامحه هو فى صورة مزعومة لسقراط[1] .

وإذن فطبقا لما جاء فى محاورة فيدون ، كان الأثر المباشر فى نفس سقراط من اكتشافه أن أنكساغورس يصدر أحكاما قطعية عن الطبيعة بنفس الطريقة التعسفية التى يتبعها معارضوه ، هو أن يقوده ذلك إلى ابتداع « طريقة » جديده فى البحث عن الحقيقة . فإذا كنا لا نستطيع أن نكشف عن حقيقة الأشياء بالفحص المباشر للأشياء ذاتها ، فإننا نستطيع أن نصل إليها باختبار « القضايا » أو « النظريات » (logoi) التى نصوغها عن هذه الأشياء ، ولأن هذا المنهاج من قبيل التحايل بصورة واضحة فإن سقراط قد غض من شأنه بوصفه حيلة يلجأ إليها رجل هاو . أما الحقيقة بطبيعة الحال فهى أنه يعتقد أن منهاجه يمنحنا الفرصة الوحيدة

(١) إن الرسام العظيم الذى يرسم لوحات للأشخاص يضع شخصيته دائماً فى لوحاته . ولو كان فناناً أدنى رتبة فى فنه لاختلفت اللوحة . ولكنه لا يضع ملامحه الخاصة فى صور الذين يرسمهم .

للوصول إلى أية معرفة حقيقية . والمنهاج الذى يصفه هو على وجه التحديد ما سماه « الطريقة الجدلية » — كما نرى فى زينون(١) وأفلاطون كذلك — وهو اسم ربما كان القصد الصحيح منه هو أسلوب « الحوار » والفكرة التى تشرح استخدام هذا الاسم هى أن الحقيقة ينبغى أن يتوصل إليها بمقارعة الحجج فى محاورة أو مناظرة يمكن أن تقوم بين اثنين يسأل كل منهما الآخر ويستجوبه ، أو فى قلب رجل واحد كذلك ، حيث تسأله «روحه» ثم تجيب عن الأسئلة نفسها . والحقيقة التى لا يمكن الكشف عنها بالفحص المباشر للحقائق قد تنكشف عن طريق تفسيرات متناقضة لهذه الحقائق تقاس بمقياس النقد وهى تأتى — حين تأتى — كخاتمة للمناظرة .

وقرع الدليل بالدليل أو النظرية على هذه الصورة هى الأسلوب الذى يمسخه أرستوفان مسخا بلغ حد الإسراف والخبث فى مسرحية « السحاب » . وكان بروتاجوراس أيضا قد قال فى معنى يختلف اختلافا بينا عن هذا إن كل شىء يتعرض لنوعين من التدليل ، أى أن كل قضية ذات ناحيتين ، وأن أسلوب الدفاع المثمر وهو الفن الذى كان يقوم بتعليمه ، يهدف إلى أن يجعل « أضعف القضيتين » تلك التى لو عرضت بغير مهارة لنالت إعراض المستمعين ، « أقواهما حجة » . أما أرستوفان فإنه يضفى على هذا القول الساذج معنى آخر ، هو أن هدف الدفاع أن

(١) فى كتاب ذكريات عرض مفصل بعض الشىء لشرح الطريقة التى جعل بها سقراط أولئك الملتفين حوله « أكثر استعدادا للجدل » وكانت طريقته إلى هذا — فيما يروى عنه زينون — أن يحثهم على التفكير المحدد والتعبير عن أفكارهم بطريقة واضحة .

يضفى على قضية خاسرة من الناحية الخلقية ما يجعلها فى صورة أقوى قياسا إلى أخرى ، حتى إذا ما طبق أسلوب الجدل هذا على منهاج سقراط جعل القضيتين تمثلان على المسرح بالفضيلة والرذيلة ، وبطبيعة الحال تطرد الفضيلة الرذيلة من الميدان . وهذا لا يعدو أن يكون من نوع المسخ المسرف للواقع ، ولكنه يفترض أن سقراط فى أثناء طفولة أفلاطون كان معروفا عنه أنه معنى عناية خاصة بمقارعة الحجج من نوع ما .

وتعطينا محاورة فيدون بيانا وافيا إلى حد كبير عن طبيعة النقاش الذى ينهج هذا المنهج ، ومؤداه أن يبدأ سقراط من قضية منطقية هو مقتنع بصدقها استنادا إلى أية أسس افتراضية وهذه يسميها « الفرض المبدئى » . ثم يمضى فيسأل نفسه : « أى شىء ينبغى أن يترتب على ذلك الفرض إذا سلمنا بصحته ؟ » أى أنه يستنبط ما يترتب عليه من نتائج . وما دام الفرض المبدئى مسلما به على هذا الوضع فكل ما ترتب عليه صادق وكل ما يتعارض معه فهو كاذب ومن ثم فإن الفرض الذى يستند إليه هذا المنهاج هو أن الصدق نظرية متماسكة الحلقات وأن كل ما يتعارض مع مبدأ صادق لا يمكن أن يكون صحيحا . وينبغى أن نلاحظ بطبيعة الحال أن المبدأ المفترض الذى يسميه سقراط « الفرض » لا يؤخذ على أنه « مجرد افتراض بحت » وإنما يأخذه سقراط على أنه نقطة البداية فى التدليل لأنه يفترض أنه صادق أو لأنه أساس قد افترض صدقه هو والطرف الآخر فى النقاش . ومن جهة أخرى لا ينصرف هذا النقاش إلى تأكيد المبدأ على أنه قضية بديهية صادقة لا معقب عليها فقد يوضع

موضع المناقشة . وعندئذ يحتاج الأمر إلى الدفاع عنه دفاعا يأتى عن طريق الاستدلال عليه قياسا إلى « فرض » آخر أكثر « قطعية » وأقل تعرضا للشك . والقاعدة العامة فى الطريقة هى الفصل بين السؤالين : السؤال الخاص بأى النتائج التى تترتب على «الفرض» والسؤال الخاص «بالفرض» ذاته وهل يصدق وما دمنا بصدد السؤال الأول الخاص بالنتائج ، فإن « الفرض » ذاته ينبغى ألا يكون موضع نقاش .

وإلى هنا يتضح أن منهاج سقراط على الصورة التى تبدو فى محاورة فيدون هو المنهاج الذى أثبت صدقه من حيث المبدأ باعتباره الطريق الوحيد إلى الصدق فى النظريات العلمية حتى وقتنا هذا والمقارنة التى تقام بين أسلوب البحث المباشر التى كان يتبعها علماء الطبيعة الأيونيون والتى لم تؤد إلى شىء ، وبين أسلوب آخر يذهب إلى دراسة الموجودات المادية استناداً إلى «النظريات» التى نصوغها تفسيراً لهذه الأشياء ، هى ذاتها التى يقيمها دى مورجان De Morgan كذلك بين طريقة بيكون الخاطئة ، التى يزعم فيها أن الموجودات المادية موجودة لاستنباط نظرية منها ، وطريقة نيوتن الصائبة التى تذهب إلى أن حقائق الكون المادية قائمة لنقيس بها صدق النظرية[1] . وأبرز الفوارق بين أسلوبى البحث أن سقراط لا يشير إشارة خاصة إلى التأكد من صدق النظرية عن طريق قياس نتائجها الصورية بمقياس الواقع المادى الملاحظ ومع ذلك فإن التكييف

---

(١) ا. دى مورجان — حصيلة من المتناقضات (الطبعة الثانية) ١ ، ٨٨ .

المنطقى الدقيق لهذا التأكد من صدق النظرية يأتى فى تفضيل أفلاطون ومدرسته لتفكير سقراط ، حتى لقد اصطلح على تسمية النظرية العلمية التى تفسر كل الحقائق المادية التى نشاهدها وما يتصل بها من ظواهر بقولهم « افتراض علمى يفسر الظواهر » . (و « الظواهر » هى الوقائع كما تسجلها المشاهدة ، و «التفسير » يقصد به تبيان الأسباب التى تربط هذه الظواهر كلها فى سياق محكم). ولم يكن فى وسع سقراط ولا أفلاطون بطبيعة الحال التفكير فى التثبت من صدق النظريات عن طريق التجارب العلمية التى يعمد إليها العلم حديثا على نطاق واسع تأكيداً لهذا الغرض السالف .

وإلى هنا نجد شاهدا مستقلا على أن التفصيل الوارد فى محاورة فيدون عن منهاج سقراط هو شاهد تاريخى وقد كان زينون يدرك أن الأسلوب الذى يتبعه حين ينازعه أحد فى قضية من قضاياه هو الربط المنطقى بين «الفرض» وبين ما يتبعه من خطوات أى إلى المقدمة الأولى التى كان متفقا عليها مع معارضه [١] ، وإن كان هذا بطبيعة الحال قد يعنى فقط أن زينون قد قرأ محاورة « فيدون » ، ولم يجد سببا لعدم الثقة فيما تحتويه من عبارات . وأكثر من ذلك دلالة فى نظرى أن أفلاطون نفسه يجعل بروتاجوراس يشير مجرد إشارة — دون مزيد من الشرح — إلى الطريقة التى قوامها أخذ قضية معينة على أنها « فرض » لا تناقش صحته ما دمنا معنيين بالكشف عن نتائجه ، على اعتبار أنها طريقة خاصة يتميز بها

---

(١) ذكريات ، ٤ ، ٦ ، ١٣

سقراط ، فى محاورة يتظاهر بأنها وقعت قبل مولد سقراط[1]. ونستطيع أن نرى بالإضافة إلى ذلك من أى مصدر يمكن أن سقراط قد استوحى طريقته . فقد كان استنباط النتائج استنباطا منطقيا دقيقا من «فرض ما» هو الطريقة الخاصة التى يلجأ إليها زينون الإيلى الشهير ، وإن كانت «فروض» معارضيه هى التى كان يعالجها على هذا النحو ، وكان غرضه أن يعيبها بإظهار أنها تؤدى إلى نتائج مستحيلة ، كما صوره أفلاطون فى محاورة بارمينيدس[2] يشرح طريقته هذه لسقراط الشاب .

إلى هنا يحتمل أن نجد كثيراً من الدارسين المدققين لهذا الشاهد — إن لم يكن معظمهم — على استعداد لمتابعتنا . ولكن معظمهم قد يرفض أن يخطو الخطوة التالية فيتقبل ماتقوله القصة الواردة فى محاورة فيدون عن طبيعة « الفرض » المعين الذى اتخذه سقراط لنفسه أساسا لتفكيره ، على أنه فى أساسه صادق صدقا تاريخيا . فهذا الفرض فيما يقال ليس شيئاً آخر غير « نظرية المثل » الشهيرة ، والدعوى قائمة بلا برهان — أو بغير برهان سوى بضع عبارات غامضة فى كتابات أرسطو — بأن هذه النظرية قد استكشفها أفلاطون للمرة الأولى بعد وفاة سقراط . أما عن نفسى ، فإنى أرى مع بهرنت أنه من غير المستساغ عقلا أن يقدم

---

(١) بروتاجوراس ٣٥١ هـ ولا يستخدم هنا لفظ (الفرض) ولكن بروتاجوراس يقترح على سقراط أن يناقش القضية القائلة بأن الخير هو اللذة « وفقا لأسلوب بحثك المعتاد » ، باستنتاج النتائج المترتبة عليها .

(٢) بارمنيدس ، ١٢٨ جـ — هـ .

أى مفكر إلى العالم كشفا خاصا به ، أصيلا بصفة بارزة ، بأن يصوره على أنه كان معروفا من مدة طويلة لعدد من المعاصرين الأحياء ، الذين كان من المؤكد أن يقرءوا كتابه ويكشفوا أى تصوير مجانب للحقيقة فيه ومن ثم فأنا أرى أننا يجب أن نأخذ العبارات الواردة فى محاورة فيدون على أنها مؤكدة الصدق ، وعلينا أن نفسر الشاهد المستمد من أرسطو — إذا قبلناه أصلا على أنه شىء أكثر من تخمين خمّنه لنفسه — بطريقة لا تتعارض مع أفلاطون وينبغى أن نتذكر بطبيعة الحال أن أفلاطون قد مزج شخصيته بموضوعه فى أثناء عملية الكتابة ذاتها ، ولكن علينا أن نأخذ ذلك على أنه مسألة لا محيص عنها ، ولم يكن عن قصد واع لتشويه الحقيقة

وقد كانت المشكلة التى حيرت سقراط هى (سبب الحدوث والعدم) . لماذا يظهر شىء ما فى هذا العالم ولماذا يختفى منه ، لماذا تظهر لشىء ما صفة لم تكن فيه من قبل أو يفقد صفة كانت فيه ، إن علماء الطبيعة لديهم ما يجيبون به عن هذا السؤال ، فقد وجدوا أسباب هذه التغيرات فى العوامل الطبيعية التى حددوها بطريقة تعسفية واختلفوا فى تحديدها وقد كان من أمر التفكير فى القضية التى عرضها أنكساغورس عن (العقل) بوصفه مصدر النظام فى هذا العالم ، أن أوحى لسقراط أن هذه العوامل الطبيعية — أيا كانت ماهيتها — لا تزيد فى أحسن أوضاعها على أن تكون أسبابا « ملازمة » أو صفات لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للحدث . أما السبب الحقيقى فى كل حالة فهو أنه من « الأفضل » أن تكون الأشياء فى وضعها

الذى هى عليه ؛ وفى العالم الذى يقوم العقل بتنظيمه يكون كل شىء موضوعا فى أفضل وضع ينبغى أن يكون عليه . وبهذه الطريقة أدخل سقراط فى الفلسفة الفكرة «الغائية» أو «النهائية» لنظام الكون بوصفه محققا لغاية ذات قيمة مطلقة ، هى التى عمل أفلاطون وأرسطو وأفلوطين على توضيحها وإبرازها ، ونقلها إلى العصور التالية بوصفها تراث التفكير الفلسفى الإغريقى

وقد كان ترك أسلوب البحث القديم الساذج الذى يحاول الكشف عن الحقيقة بالفحص البسيط لحقائق الكون المادى معناه ، بطبيعة الحال أن سقراط لم يكن يستطيع أن يحلم بأن يعرف عن طريق الفحص المباشر ما هى التفاصيل الدقيقة لنظام العالم ، وما هو السبب فى أنه من الأفضل أن تكون ما هى عليه . ولكن اقتناعه بأن كل شىء يخضع لنظام يدركه العقل، وأنه نظام حكيم، أعطاه وجهة نظر محددة يعالج منها المشكلة المتعلقة بسبب مجىء الموجودات المادية إلى هذا الوجود وانعدامها ، ولماذا يكتسب الموجود المادى خاصة معينة أو يفقدها . وهو يتحدث عن وجهة النظر هذه فى محاورة فيدون على أنها ليست أمراً جديداً على مستمعيه ، بل هى شىء سمعوه منه مراراً . فإذا أصبح شىء ما غير ما كان عليه ، إذا أصبح جميلا مثلا ، فرد ذلك على الدوام إلى سبب واحد لايتبدل هو أن الجمال خاصة « أضفيت » على هذا الشىء . فإذا افتقد خاصة الجمال فذلك لأن خاصة الجمال قد انصرفت عنه . وبتعبير آخر أن الشىء الجميل قد اكتسب جماله ، ثم هو يحتفظ بهذا الطابع الجميل ما دام يساهم فى فكرة الجمال ، وكذلك

يكتسب الشكل الهندسى طوابع المثلث ما دام « مشتقا » من صورة المثلث « الكلى » وطالما بقيت هذه الصلة بينه وبين « الكلى » والجمال — أو الجميل كما تعبر اللغة الإغريقية — والمثلث وأشباههما ، هى ما يعبر عنه هذا المذهب « بالصور » أو « الأنماط » (eide, ideai) [1] والشىء هو ما هو عليه ، وفيه الخصائص التى فيه ، لأنه يسام فى « المثل » التى هو مشتق منها . وثمة النقط الهامة الآتية حول هذه الصور .

١ — الموجودات المادية التى « تسام » فى هذه الصور الكلية (الكليات) كلها زائلة ، فهى تحدث وتفنى ، ولكن الصورة الكاملة . . الجمال المثلث . الخ ، لا تحدث ولا تفنى ، وإنما هى على وجه التحديد ما يسميه الدكتور هوايتهيد « شيئاً أبديا » .

٢ — الأشياء التى ندركها بحواسنا « تأخذ بنصيب » من الصورة الكلية أو « تشابهها » فقط مشابهة غير كاملة فنحن لا نرى قط عصا مستقيمة تمام الاستقامة بغير عوج ، أو رقعة مثلثة الشكل تماما ومضبوطة ضبطاً كاملا ، وربما لا نصادف قط عملا عادلا عدالة كاملة وإنما نرى فقط عصياً قريبة من الاستواء ، ورقعاً قريبة من الشكل المثلث ، ونصادف أعمالا قريبة من العدالة ولكن « الخط المستقيم » أو « المثلث » اللذين

---

(١) ولكن من الخطأ الضال أن ندعوها — كما سميت طويلا — « بالأفكار Ideas » فان هذا يوحى إلينا بأنها « أفكار » شخص ما ، « أفكار قائمة فى رأس شخص معين » . وهذا هو وعلى وجه التحديد ما لم تكن النظرية تقصد إليه .

يحدثنا عنهما عالم الهندسة كاملا الاستقامة أو التثلث ، والعدالة التي يحدثنا عنها رجل الأخلاق على أنها واجب ، هي عدالة كاملة .

٣ — الأشياء التي تأخذ بنصيب من الصورة الكلية قد تكون كثيرة بغير حد ، ولكن الصورة ذاتها واحدة فقط وحتى في الهندسة ، حيث نتحدث عن مثلثات كثيرة ، المفروض فيها كلها أن تكون مثلثات كاملة ، فليس ما يسعى عالم الهندسة إلى إثباته هو خصائص هذا المثلث أو ذاك ، وإنما خصائص « الـ » مثلث بصفة عامة .[1] والموضوع الذي نتحدث عنه في العلم هو دائما « الصورة » الكلية وليس هذا الشيء أو ذاك الشيء الذي يأخذ بنصيب من هذه الصورة الكلية . فأنا « أعرف » كحقيقة علمية أن مجموع أي ضلعين في المثلث أكبر من الضلع الثالث . ولكني لا « أعرف » أن مجموع ضلعين في هذا المثلث الموجود أمامي لا بد أن يكون أكبر من الضلع الثالث لأني لا « أعرف » أن هذا المثلث الموجود أمامي مثلث الشكل حقا

ولا شك أننا نحب أن نعرف — إذا استطعنا — مزيداً من المعلومات عن هذه الصور الكلية . أي الأشياء مشتق من هذه الصورة الكلية (أو مرده إلى صور كلية) . (ومن ثم : أي الأشياء يمكن أن يكون لنا به معرفة علمية ؟) ثم : هل تخضع هذه الصور الكلية لنظرية تنظمها

---

(١) نجد ذلك بصورة شائقة في اللغة ، فمثلا نجد الهندسة تتحدث عن « الـ » معادلة المساوية للدائرة ، وعلم الحساب يتحدث عن « الـ » عدد ستة .

جميعا ؟ ، نستطيع أن ندرك من إشارات أرسطو الجدلية أن أكاديمية أفلاطون كان لديها فى تاريخ متأخر أجوبة لهذه الأسئلة وإن تكن لا تتسق معها فى جميع الحالات ، وأن ارسطو وجد هذه الإجابات كلها غير مرضية . ولكننا لسنا فى حاجة لأن نعود فنقرأ فى محاورة فيدون توضيحات الفكرة كتبها أفلاطون فى سن متأخرة ، بل إننا قد نشك فى أن أفلاطون فى « الجمهورية » كان — على غير وعى منه — « يلون » صورة سقراط بأكثر مما يعرف ، كلما تقدم فى عرض القضية . فمن الأمثلة الواردة فى محاورة فيدون ذاتها يبدو أن الذى كان يشغل تفكير سقراط بصفة رئيسية هو — من جانب — الأشياء التى يستطيع الرياضى أن يعرّفها تعريفاً دقيقا فى الهندسة والحساب ، ومن جانب آخر ، المقاييس والمعايير المثالية لرجل الأخلاق (الـ عدد ٣ — الـ مثلث — الـ عادل ، وما شابه ذلك) والذى يثبت لنا هذه الفكرة هو المحاورات التى كتبها أفلاطون فى مرحلة متأخرة من كتابته ، وهى محاورة « پارمنيدس » التى يفسر فيهـــا سقراط نظريته للفيلسوفين الإيليين پارمنيدس وزينون ، ويدافع عنها — بغير نجاح كبير — إزاء مايوجهانه إليها من نقد . ويجرى أفلاطون على لسانه [1] هناك أنه يحس أنه على يقين من ان هناك صوراً كلية لأمور مثل « المشابهة وعدم المشابهة » و « الوحدة » و « التعدد » و « العدل » و « الخير » ولكنه يشك كثيراً فى وجود صور « للإنسان » و « النار » و « الماء » ، وهو أكثر شكا فى أمر

(١) پارمنيدس ؛ ١٢٩ — ١٣٠ .

«الشعر» و «الطين» و «القذر» والواقع أنه واثق من قضيته فيما يتعلق بالرياضيات والأخلاقيات، ولكنه شديد الشك في صور كلية الموجودات المادية، ونستطيع أن نستنتج من ذلك أن الدافع الأول لتكوين النظرية قد جاء من التفكر في الحقائق الرياضية والخلقية، وهذا ما ينبغي أن نتوقعه إذا كان المذهب قد نشأ أصلا عن طريق سقراط، وإذا كان سقراط هو الرجل الذي يصوره أفلاطون والاصطلاحات المستخدمة ذاتها تبدو أنها مأخوذة بادئ ذي بدء من رياضيات الفيثاغوريين. فهناك برهان كاف على أن كلمة (eidos) كانت هي الاسم الفيثاغوري القديم لكلمة «شكل» وهو معنى من معاني اللفظ يسود استخدامه في عبارات تبلورت في صورة مصطلحات عند إقليدس وغيره من علماء الهندسة في القرن الثالث على الرغم من أن لفظتهم المعتادة التي يعبرون بها عن معنى «الشكل» هي لفظة مختلفة (schema).[1] وكثيراً ما يصور أفلاطون سقراط معبراً عن شعوره العميق بالحاجة إلى مقاييس خلقية يمكن بها حسم الخلاف حول الصواب والخطأ، كما يحسم النزاع حول المساحة أو الحجم بالرجوع إلى الهندسة، أو الخلاف حول الوزن بالرجوع إلى الميزان:

ونحن نرى أن هذه النظرية كانت محاولة أولى لإعطاء عامل «القبلية» في المعرفة مكانه الحق، وهو ما تتميز به قضايا الرياضة البحتة وقضايا

---

(١) هذا المعنى ذاته لكلمة Patterns (أنماط) يفسر طريقة التعبير (الإنجليزية) عن أشكال الكلام (أي الصور البلاغية) :Figures of speech وأشكال القياس Figures of syllogism.

الأخلاق البحتة من « ضرورة » و « شمول » وهما ما تتميز به المعرفة العلمية، وأن هاتين الدراستين من المعرفة مأخوذتان كنموذج لما ينبغى أن يسير عليه العلم كله . ومن هنا نفهم لماذا كان الفلاسفة المتأخرون يطابقون بين « الصور » وبين « الكليات » و « التصورات العقلية » و « المفاهيم الدالة على فئات » . ولكن الحديث عنها على هذا النحو يتضمن فى الحقيقة تحريفاً تاريخياً بالنسبة لفكرة كانت أبسط من ذلك التعقيد ، ويجعل سقراط يتحدث كما يتحدث أرسطو أو كانت ، ولا نستطيع أن نفعل ذلك دون الوقوع فى سوء الفهم ، ولو أن مذهب سقراط هو الأصل الأول لأفكارهما . فإذا أردنا أن نتجنب كل هذه الانحرافات فى الفهم فالأفضل أن نقول ببساطة إن « الصورة » — مهما تكن دلالتها — هى التى نشير إليها كلما استخدمنا « اسماً عاماً » ذا دلالة ، موضوعاً فى قضية منطقية صادقة كل الصدق فهو الشىء الذى يصدق عليه الحكم فى مثل هذه القضية . وهذه الأشياء — لا الأشياء المحسة التى تكشف عنها وسائل الإدراك الجسدية — هى ، حسبما يرى سقراط ، أكثر الأشياء حقيقة ، والأشياء الوحيدة ذات الحقيقة الكاملة والروح — كما رأينا — لها فاعلية واحدة رئيسية ، هى « معرفة » الحقائق كما هى فى حقيقتها ، ولا تتم هذه الفاعلية بنجاح إلا بمعرفة « الصور » . فإذا لم يكن العقل فى حالة معاينة مباشرة لهذه الصور فإننا نحصل فقط على « رأى » أو « اعتقاد » ، اعتقاد قد يكون بطبيعة الحال كافياً فى حالات كثيرة لاحتياجات الحياة

اليومية ، ولكننا لا نحصل على « المعرفة » لأن عنصر الارتباط «الضرورى» غير موجود .

هل تكوّن الصور — التى هى الأهداف الصحيحة للمعرفة الحقة — وحدة منظمة أو نسقاً ؟ إنه ينبغى لها أن تكون كذلك بلا شك ، ما دام النسق الذى ينتظم هذه الصور كلها — كما جاء فى محاورة فيدون — بوصفها تفسيراً لحدوث الأشياء وفنائها ، إنما يوحى إلينا به من اعتقاد أرسخ جذوراً ، يقضى بأنه فى العالم الذى يسرى العقل فى ثناياه ، تكون كل الأشياء منظمة على أفضل وضع يمكن أن تكون عليه ، ويكون « الخير » — وهو نفسه «صورة» — هو السبب الذى يفسر هذا النظام كله وهذا يتفق اتفاقاً دقيقاً مع فكرة شهيرة فى « الجمهورية »[١] حيث يتحدث سقراط عن « الخير » أو « صورة » الخير ، على أنها تحتل فى عالم الصور التى يدركها الفكر نفس المكانة المركزية العليا التى تحتلها « سليلتها » الشمس فى العالم المرئى ، وكما أن الشمس فى العالم المرئى هى الحياة بالنسبة للأشياء التى نراها ، والنور الذى نراها به فى نفس الوقت ، فكذلك الخير فى العالم الذى يدركه الفكر هو مصدر الحقيقة بالنسبة للصور التى ندركها ، وإداة المعرفة التى ندركها به وكما أن الشمس — رغم أنها مصدر النور والنمو — ليست هى نفسها نوراً ولا نمواً ، فكذلك الخير ، لا هو « الوجود » ولا « المعرفة » بل شىء آخر يسمو عليهما معا ، ويكون مصدراً لها . ولكن يُجرَى على لسان سقراط كلام

---

(١) الجمهورية ، ٥٠٦ د — ٩ ٥ ب .

يعترف فيه بأنه إذا كان جبروت الإبصار المادى هو استطاعته أن يحدق فى الشمس ، فكذلك يتجلى جبروت العقل فى أشق مهمة له وهى معرفة الخير . وهو ذاته فى هذه الفقرة يعترف بعجزه عن الحديث عنه بأية لغة غير لغة المجاز والأمثال . وقد جرى الظن على أن أفلاطون فى هذه الفقرة يتحدث عن تأملات ذاتية خاصة به هو ، لم يحلم بها قط « أستاذه» الذى يستعير صوته فى محاوراته . ولكنى بالنظر إلى الصلة الوثيقة القائمة فى صفحات « السيرة الذاتية » من محاورة فيدون بين « الفرض » الخاص « بالصور » والاعتقاد بأن الخير هو السبب الكلى ، أجد من الصعب أن أوافق على هذا الرأى ، وإنما أنا أميل إلى الاعتقاد بأن لغة هذه الفقرات ذات الرواء والفخامة ، وما فيها من صور بلاغية ، هى لغة أفلاطون فى زهرة شبابه ، ولكن الذى استلزم هذا التفكير هو التأمل الذى جاء نتيجة الاصطدام الأول بكتاب أنكساغورس . ومن الواضح أن مذهب « الصور » فى شكله الذى ينبغى — كما أعتقد — أن نوطن نفوسنا على نسبته إلى سقراط ، يخلق صعوبات كما أنه يزيلها ، فهو بصفة خاصة يترك بلا أدنى شرح مسألة العلاقة بين «الصورة» والواقع المحسوس الذى يدعوه « حضور الصورة » أو « المشاركة فيها » . هل ما نسميه بالشىء المحسوس هو مجرد جمع وقتى لمزاج من هذه « الصور » أو « الكليات » ؟ وإذا كان أكثر من ذلك فأى شىء آخر هو ؟ إن أحداً لم يبرز هذه الصعوبات بصورة قاطعة كما فعل أفلاطون نفسه فى محاورته پارمينيدس ، ويبدو لى من الواضح على الأقل أن الصورة النهائية لتعاليم

أفلاطون نفسه — التي ينبغي علينا أن نعيد بناءها بشكل غير مكتمل من الإشارات المحيرة التي وردت في كتابات أرسطو — كانت محاولة للعثور على جواب لهذه المشكلة . أما أرسطو نفسه فقد حيرته النتائج إلى حد أنه وصل إلى معالجة مذهب الصور ذاته على أنه محاولة مخطئة لفصل (الصفات الكلية) للأشياء المفردة المحسوسة عن الأشياء ذاتها ، ثم إقامة هذه « المجردات » كمجموعة ثانية من الأشياء التي لا يدركها الحس ، والتي تنتج بطريقة ما الأشياء التي نراها ، ونعرض لدراستها أو علاجها . إن الأمر — كما يقول — كما لو أن إنسانا عليه أن يحصي عددا من الأدوات ، فيتخيل أن عليه أن يبدأ بمضاعفتها . وقد ظن أنه قد تخلص إلى الأبد من مشكلة غير حقيقية وغير قابلة للحل ، عن طريق قانونه الذي يقضي بأن « الصورة » لا توجد إلا « في » الشيء المفرد المحسوس ، وهو « صفتها الأساسية » . ولكن المشكلة مع ذلك ما تزال ماثلة أمامنا على الرغم من أرســـطو ، كعقدة حقيقية تعترض كل ما يبذل أخيراً لإيجاد فلسفة للعلوم . فما نزال نجد أنفسنا في حاجة لأن نسأل : ما هو التكييف العلمي الدقيق لمركز الموجودات المادية من عالم المعرفة ؟ بل « ما هي » الأشياء التي يتحدث عنها عالم الرياضة وعالم الطبيعة ؟ أو مرة أخرى : ما هو (المثل الأعلى) الأخلاقي ؟ وما هي العلاقة بين خواص الأشياء التي يعرض لدراستها العلم والأشياء التي نلمسها أو نراها ؟ ثم كيف تقوم الصلة بين « القيمة » و « الواقع » ؟ وما تزال الفلسفة الطبيعية والأخلاقية بعيدة عن إجابة هذه الأسئلة إجابة قاطعة ، وهي أبعد من

أن نستطيع الهرب من ضرورة سؤالها . وتتجلى عظمة سقراط الفذة في أنه كان أول رجل في العالم أبرزها بفهم واضح لما يفعل .

* * *

وقد ظل كثير من رفقاء سقراط نشيطين بعد موته ، كرؤساء لمذاهب فلسفية ، وكان لأحدهم وهو أنتستانس Anthsthenes إنتاج فلسفي ضخم . وقد اعتاد الناس الحديث عن هؤلاء الرجال وأتباعهم على أنهم (سقراطيون صغار) . ولكني أرى أنه من المشكوك فيه جداً أن يكون لهذا التعبير الذي يعكس طريقة العصر الإسكندري المصطنعة في كتابة التراجم ما يبرره . إن معارضي أرسطو الميغاريين في القرن الرابع ومعاصريهم ديوجين والشواذ الآخرين الذين أطلق عليهم العامة لقب الكلبيين Cynics والأخلاقيين من قورينا الداعين إلى مذهب اللذة في القرن الثالث ، قد انتسبوا إلى سقراط عن طريق إقليدس وأنتستانس وأريستيبوس على التوالي . ولكن ليس هناك ما يدل على وجود مدرسة (قورينائية) قبل عصر خلفاء الإسكندر . والميغاريون الذين كانوا مهاجمين أشداء لأرسطو كانوا يتخذون وجهات نظر لا يمكن التوفيق بينها وبين الواحدية الصارمة التي تنسبها المراجع كلها التي بين أيدينا إلى إقليدس ، وعلى الرغم من أن ديوجين ومقلديه أظهروا احتراما عظيما لأنتستانس ، فليس من الواضح أنهم اعتبروا أنفسهم بأية صورة من الصور متصلين به بوصفه (مؤسسا) لمدرستهم . كما أن إقليدس

وأريستيبوس وأنتستانس كانوا كلهم أقرب إلى الأصدقاء المعجبين بسقراط منهم إلى (تلاميذه) . وقد كانت نظريات إقليدس ميراثا مباشرا من الإيليين ، وقد اتفق الرأى على أن أريستيبوس لم تكن له نظريات فلسفية على الإطلاق . أما النظريات المتناقضة التى يذكر بها أنتستانس بصفة رئيسية وإنكاره لإمكان وجود التنافس وما أشبه ذلك ، فلم يكن مصدرها سقراط بل (السوفسطائيون) فبالنسبة إلى كل ما هو ذو شأن نقول إنه لم يكن لسقراط سوى (خليفة) واحد — هو أفلاطون .



الأدارة
بوزار

الثمن
٧٥ مليما